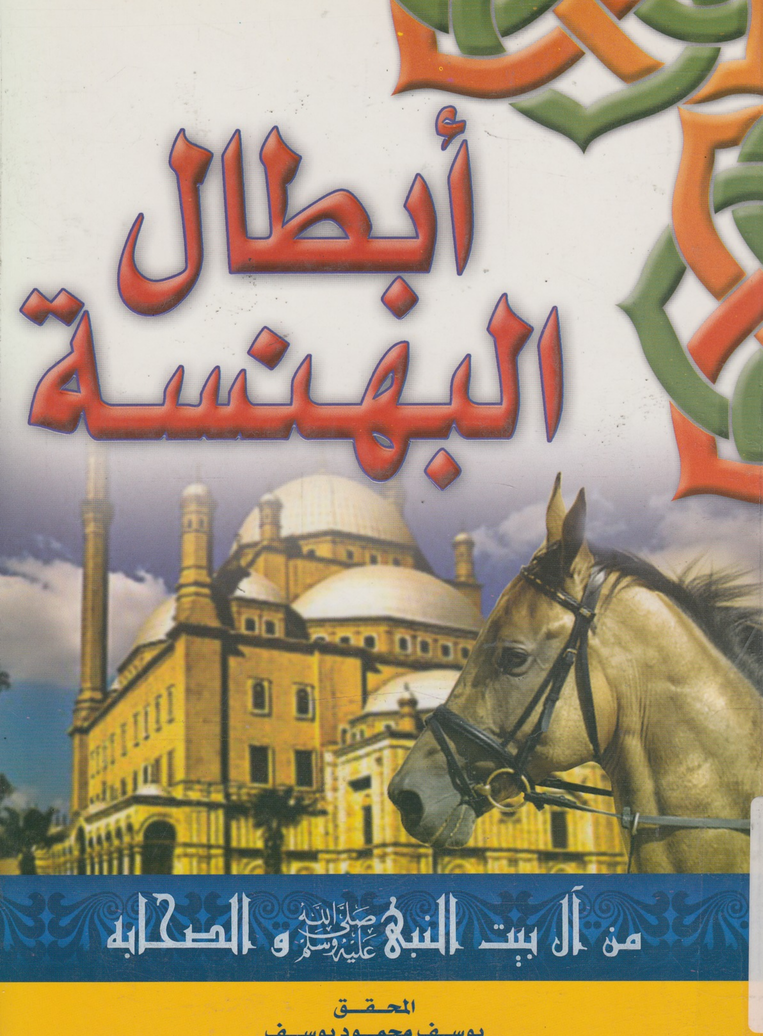
أبطال البهنسة



من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم و الصحابه

المحقق
يوسف محمود يوسف



قال عمرو بن العاص رضي الله عنه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ ليس بعد مكة والمدينة والأرض المقدسة

والطور أرض مباركة

إلا أرض مصر

والبركة هي في الجانب الغربي ﴾

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه

﴿ ولعلها البهنسة ﴾



مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وصلاة الله وسلامه ورحماته وبركاته علي صفوة عبادة وخيرته من خلقه محمد عبده ورسوله وعلي أهل بيته الطاهرين وصحابته أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

أما بعد ،،،

تقع البهنسة في مركز بني مزار محافظة المنيا بصعيد مصر (وبني مزار هم أبناء المزار الخالد بجبانة أبطال البهنسة) .



ذكر فتوح البهنسا و أهناس وأعماله وفضائل جبانتها

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله ﷺ .

أعلم وفقك الله أن مدينة البهنسا ذكر بعض المفسرين أن الله سبحانه وتعالي ذكرها في كتابه العزيز بقوله عز وجل في حق عيسي عليه السلام – وجعلنا ابن مريم وأمه آيـة وآويناهما إلي ربوة ذات قرار ومعين – قال هي أرض البهنسا ، وكان من أمر عيسي علـيه السلام ما سنذكره إن شاء الله تعالي ، واستشهد بها زهاء من خمسة آلاف مـن أصحاب رسول الله ﷺ منهم من الأعيان والأمراء زهاء من أربعمائة ، ويتـبعهم مـن الأشـراف والصحابة نفر كثير ، منهم علي بن عقيل بن أبي طالب والحـسن بن صالح بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي عمر جامعا بها ، وكان مـن أمـره مـا سنذكره إن شاء الله تعالي وزياد بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب والفضل بن العباس عم رسول الله ﷺ.

وسنذكر من استشهد من الصحابة الأعيان بها إن شاء الله تعالي عند الفتوح وأبـنائهم وجماعـة كثيـرة ، وذكر جماعة من السادات الأخيار أن من زار جبانة البهنـسا خـاض في الرحمة حتى يعود ومن زارها خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنـه لا يـزورها مهمـوم إلا فرج الله همه ، ولا مغموم إلا أذهب الله غمه ، ولا صـاحب حاجة إلا قضيت بإذن الله عز وجل ، والأماكن المستجاب فيها الدعاء منها عند مجري الحصى ومقطع السيل وأن هناك خلقا كثيرا من الشهداء ، ومشهد الحسن بـن صـالح بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وعند قبر زياد بن أبي سفيان بن الحرث ، وعند قبر عبد الرزاق من داخل الباب ، وعند معبد عيسي ابن مريم عليهما السلام ، وعند قبور الشهداء بسفح الجبل ، وقبليها مكان يعرف بالمراغة قبل الجبانة عندها قبور الشهداء هناك بسفح الجبل.

وروي جماعة من الصالحين أنهم قد جاوروا الجبانة المذكورة ، وكانوا من أرض المـشرق وجماعة من أكابر الصالحين من أرض المغرب من أقصي الأندلس

وأنهم رأوا هذه الفضائل بانت لهم فضائل وأنوار وشاهدوا ذلك عيانا ، وروي أصحاب التاريخ رضي الله عنهم أنه لم يكن بأرض مصر من البحيرة مشهد أكثر من أرض البهنسا وأن مجري الحصى عند منقطع السيل من الجهة الغربية قتل هناك خلق كثير واستشهد بها أربعمائة رضي الله عنهم أجمعين ، وسنذكر ذلك عند الفتح إن شاء الله تعالي . أما فضائل البحر اليوسفي الذي المدينة علي جانبه فهو أكثر عجائب ، منها أنه غزير البركة لأنه يفيض حتى يروي ما حوله من القرى والبلدان من قليل من زيادة النيل ، ومنها أنه إذا زاد النيل شيئا قليلا يزاد فيه شيء كثير ، ومنها أنه إذا انقطع عنه مدد النيل تفجرت من أصله عيون فصارت نهرا جاريا وهذا لا يوجد بغيره أبدا من الأنهار ، ومنها أنه ينقسم بأرض الفيوم ماء يسير فيروي زراعات وأراض شتي وضياعا وهذا لا يوجد غيره أبدا ، ومنها أنه دفن فيه يوسف الصديق عليه السلام وأقام إلي زمن موسي عليه السلام فازداد بذلك بركة

ذكر خروج عيسي عليه السلام من مصر
وإقامته بأرض البهنسا

قال الله تعالي ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلي ربوة ذات قرار ومعين ﴾[1] الآيـــة ، وتقدم أنها البهنسا علي اختلاف المفسرين والواقدي وابن اسحق وابن هشام وأصحاب السير وأهل التفسير مثل سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وابن عباس ، ومن تكلم في هذا الكتاب العجيب الذي لو كتب بالذهب لكان قليلا وقد جمع فيه كتب كثيرة وتواريخ وتفاسير وفتوحات . قالوا : كان مولد عيسي لمضي اثنتين وأربعين ســنة من ملوك الطوائف وكانت الرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وهرقل كما تقدم في فتوح الشام وكان بالبهنسا قنطاريوس ، والله أعلم باسمه.

فلمـــا سمع الملك هيرودوس بخبر المسيح قصد قتله ، وذلك أنهم نظروا إلي نجمـــة وقـــد طلـــع فعرفوا ذلك بحساب لهم في كتاب لهم فبعث الله ملكا إلي يوسف النجار وأخبره بما أراد هيرودس وأن يعلم مريم أن تخرج إلي أرض مصر فإنه إن ظفر بولدك قتله، فإذا مات هيردوس فارجعي إلي بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها عيسي علي حمار له حتى دخل مصر ، وورد أرض البهنسا وهي الربوة التي ذكرها الله في كتابه العزيز﴿ وآويناهما إلي ربوة ذات قرار ومعين ﴾ وهناك بئر في المعبد يستـــشفون بمائها من الأمراض وهي التي كانت مريم وابنها يستقيان منها ويتوضآن منها للصلاة، وكان هناك سرب تحت الأرض قيل إن مريم لما دخلت بولدها أرض البهنسا وجدا بئرا فطلب عيسي عليه السلام الماء ليشرب بعد أن عطش عطشا شديدا وبكي فحزنت أمه فارتفع الماء من قعر البئر حتى شرب منه ، وهي دير وزراعات والله أعلم ، ثم دخل مدينة البهنسا وأقام بها اثنتي عشر سنة وأمه تغزل الكتان وتلتقط السنبل في أثر الحصادين حتى تم لعيسي المدة المذكورة.

روي محمـــد الباقـــر، قـــال لما جاء عيسي إلي البهنسا وهو مع أمه له ابن شـــهرين كأنه ابن سنتين ، فلما كمل تسعة أشهر أخذته والدته وجاءت به إلي الكتاب بـــأرض البهنـــسا فأقعده المؤدب بين يديه وقال له قل بسم الله الرحمن الرحيم. فقال

---
[1] سورة المؤمنون: الآية ٥٠.

عيــسي بسم الله الرحمن الرحيم . فقال له المؤدب قل أبجد فرفع عيسي طرفه وقال أتــدري مـــا أبجد ؟ فعلاه المؤدب بالدرة ليضربه. فقال له يا مؤدب لا تضربني إن كنت لا تدري فاسألني حتى أعرفك . فقال قل لي.

فقال انزل من علي مرتبتك فنزل من علي مرتبته وجلس عيسي مكانه ، ثم قـــال الألف آلاء الله، والباء بهاء الله، والجيم جلال الله، والدال دين الله، والهاء هوية جهــنم وهي الهاوية والواو ويل لأهلها، والزاي زفير جهنم، والحاء حطت الخطايا عــن المــستغفرين، والكاف كلام الله لا مبدل لكلماته، والصاد صاع بصاع، والقاف قــرب حيات جهنم من العاصين فقال لها المؤدب خذي بيد ابنك فقد علمه الله تعالي فلا حاجة له بالمؤدب.

حدثــنا الحسين ومحمد بن الحسن المقري . قال حدثنا الحكيم محمد بن أحمد بــن حمــدون. قال حدثنا محمد بن حمدون بن خالد ؟ قال حدثنا الحكم بن نافع عن إســماعيل عن ابن أبي مليكة عن عطية عن أبي سعيد الخدري . قال قال رسول الله ﷺ " إن عيسي عليه السلام أرسلته أمه إلي المكتب ليتعلم، فقال له المعلم قل بسم الله الرحمن الرحيم. فقال عيسي عليه السلام. وما بسم الله الرحمن الرحيم ؟.

فقـــال المعلــم : لا أدري . فقال عيسي : "الباء بهاء الله ، والسين سناء الله والمــيم ملك الله" إلي 'خر ما جاء من الآيات والمعجزات التي ظهرت لعيسي عليه السلام بأرض البهنسا.

ذكر فتح البهنسا وما فيه من الفضائل وما وقع فيه للصحابة رضي الله عنهم

قالـــت الـــرواة بأسانيد صحيحة عمن حضر الفتح من أصحاب السير والتواريخ مثل الـــواقدي وأبـــي جعفر الطبراني وابن خلكان في تاريخ البداية والنهاية ، ومحمد بن اســحق وابن هشام وكل منهم دخل حديثه في الآخر لما في ذلك من اختلاف الرواة ممن حضر الفتوحات وشاهد الوقعات من الصحابة رضي الله عنهم.

قالـــوا : وحـــضر ذلك معظم الصحابة وكبراؤهم مثل عبد الله بن عمرو بن العـــاص أمير الجيوش علي مصر وأخيه محمد وخالد بن الوليد وابنه سليمان وقيس بـــن هبيرة المرادي والمقداد بن الأسود الكندي وميسرة بن مسروق العبسي والزبير بـــن العوام الأسدي وابنه عبد الله وضرار بن الأزور ، ومن بني عم النبي ﷺ مثل الفـــضل بن العباس وجعفر بن عقيل ومسلم بن عقيل وعبد الله بن جعفر ومن أبناء الخلفـــاء مثل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبان بن عثمان رضي الله عنه ، وقد اختصرنا في أسمائهم خوف الإطالة وكلهم حدثوا بما عاينوا من الفتوح وما شاهدوا من الوقعات وحدثوا بذلك أبنائهم رضي الله عنهم وقد أخذنا هذه الفتوح علي قاعدة الصدق لإثبات فضل رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عـــنهم إذ لـــولاهم مـــا كانت البلاد للمسلمين ولا انتشر علم هذا الدين ، ولقد نفذت ســـراياهم في الأرض شرقا وغربا حتى ولت الأعداء منهم هربا وسكبوا دماءهم في الأرض ســـكبا، والله قـــد جعل منهم في قلوب أعدائه خوفا ورعبا فهم نجوم الهداية وأهـــل الـــولاية قد شرعوا الشرائع ورتلوا القرآن ترتيلا . قال الله في حقهم تعظيما وتبجيلا ، ﴿ **فمنهم من قضي نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾[1]

قـــال حدثـــنا أبـــو عبد الله بن المحدث المصري غفر الله له : اطلعت علي فتوحات كثيرة فوجدت فيها زيادة ونقصانا وكذلك تواريخ منقولة وكنت قدمت المدينة يعني البهنسا لزيارة جبانتها لما رأيت في ذلك من الفضائل والفضل والأجر والخير

---

[1] سورة الأحزاب : الآية ٢٣.

الحـبور ، فإن زيارتها تمحص الذنوب ،.وتكف الكروب ، وتحسن الأخلاق ، وتدر الأرزاق ، وتورث النصر علي الأعداء وتكفي البأس والردى ، لما فيها من السادات الـشهداء ، ممـن باع نفسه لله ، وقتل في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ممن قال في حقهم من له الفضل والمنة ﴿ **إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾[2] فهم - ﴿ **أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾[3] فزرنا الجبانة في ساعة الأسحار ، ورأيـنا مـا فيها من الأنوار ، وبزيارة قبور السادة والأسحار ، نرجو من الله أن يحط عنا الذنوب والأوزار ، فلما قضينا الزيارة ، ولاحت لنا تلك الإشارة أخبرنا عن تلـك الـسادة الأمجاد وما كان لهم من الصبر والردى فحرك لذلك خاطري ، حتى أسـهرت لذلك ناظري ، وطالعت التواريخ والفتوحات ، وتجنبت المزاحات ، حتى انتخـبت هـذا الكتاب فهو كالدرة اليتيمة التي لا يعرف لها قيمة ترتاح عند سماعة الـنفوس ، ويزول الهم والبؤس ، ويشجع في ثواب الله العظيم ، وذلك بعد الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي سيد المرسلين وخاتم النبيين . ونحن نبتدئ.

بسم الله الرحمن الرحيم ، قال حدثني من أثق به من الرواة ممن تقدم ذكرهم. قال : لما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مصر والإسكندرية والبحيرة والوجه البحـري كله جميعا كان بالصعيد نوبة وبربر وديلم وصقالبة وروم وقبط ، وكانت الغلـبة للـروم ، كان أكثرهم روما ، ثم استشار عمرو بن العاص أصحابه أي جهة يقـصد وهـل يـسير بالجيوش شرقا أو غربا وما يصنع فأشاروا عليه مكاتبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب إليه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمرو بن العاص عامل أمير المؤمنين علي مصر ونواحيها إلي عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أمـا بعد : فإني أحمد الله وأثني عليه وأصلي علي نبيه محمد ﷺ ، والسلام علـي مـن بالمدينة من المهاجرين والأنصار والحمد لله قد فتحت لنا مصر والوجه البحـري والإسـكندرية ودمياط ولم يبقي في الوجه البحري مدينة ولا قرية إلا وقد

---

[2] سورة التوبة : الآية ١١١.
[3] سورة آل عمران : الآية ١٦٩.

فتحت وأذل الله المشركين وأعلي كلمة الدين ، وقد اجتمعت أصحاب رسول الله ﷺ من السادات والأمراء والأخيار المهاجرين والأنصار يطلبون الإذن من أمير المؤمنين فإنهم علي الجهاد قلقون باعوا نفوسهم لله رب العالمين ، وصلي الله علي سيدنا محمد خاتم النبيين وعلي آله وصحبه أجمعين وسلم.

(قال الواقدي) فلما فرغ عمرو بن العاص من الكتاب عرضه علي أصحابه ، ثم طوي الكتاب وختمه واستدعي برجل يقال له سالم بن بجيعة الكندي وسلم إليه الكتاب ودفع له ناق عشارية فاستوي علي كروها وخرج يريد المدينة ، وهو يقول:

أسير إلي المدينة في أمان	وأرجو الفوز في غرف الجنان
وأرجو أن يقرب لي اجتماعي	وأعطي ما أريد من الأماني
ألا يا ناقتي جدي وسيري	إلي نحو النبي بلا امتهان
وأقرئيه السلام وأنشديه	كلاما صادقا حسن البيان
ألا يا أشرف الثقلين يا من	به شرف المدينة والمكان
فكن لي في المعاد غدا شفيعا	إذا ما قيل هذا العبد عاني

(قال الواقدي) ولم يزل سائرا ليلا ونهارا حتى قدم المدينة الطيبة الأمينة بعد صلاة العصر فدخل وأناخ ناقته علي باب المسجد وعلقها بفضل ذمامها، ودخل في مسجد رسول الله ﷺ وسلم علي قبره الشريف وصلي ركعتين بين القبر والمنبر، ثم تقدم فوجد عمر بن الخطاب فسلم عليه. قال فرد علي السلام وصافحني، وكان لما رآني أقبلت وأنا فرحان قال سالم جاء بكتاب من مصر مرحبا به.

ثم التفت وعن يمينه علي بن أبي طالب وعن شماله عثمان بن عفان وحوله السادات والمهاجرون والأنصار مثل العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وسعيد ابن زيد وطلحة بن عبد الله وبقية الصحابة رضي الله عنهم حوله، ثم ناولته الكتاب. فقال ما وراءك يا سالم؟ فأنت سالم في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالي.

فقلت : الخير والبشري والأمن يا أمير، فلما قرأ الكتاب فرح و استبشر وكانت الغنائم قد وصلت إلي المدينة قبل ذلك بأيام، وقسمت علي الصحابة رضي الله عنهم، ثم إنه استشار عمر رضي الله عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن

حـضر فأشـار عليه علي بن أبي طالب أن عمرو بن العاص لا يسير بنفسه ليكون أهيب له في قلوب أعدائه وأن يجهز جيشا من عشرة آلاف فارس ويؤمر عليهم خالد بـن الوليد رضي الله عنه فإنه سيف لله. فقال عمر صدقت وقد قال رسول الله ﷺ " خالد سيف الله تعالي " .

ثم أقبل علي أمير المؤمنين عمر يسأله الجواب. فعندما استدعي عمر رضي الله عـنه بدواة وقرطاس، ثم كتب كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب إلي عامله علي مصر ونواحيها عمرو بن العاص، سلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أما بعد. فإني أحمد الله الذي إله إلا هو وأصلي علي نبيه محمد ﷺ، والسلام عليك وعلي من معك من المهاجرين والأنصار ورحمة لله وبركاته، وقد قرأت كتابك وفهمت خطابك، فإذا قرأت كتابي هذا فاستعن بالله واربط الخيل وأرسل الأمراء لكل بلد أمير ليقيموا شرائع الدين ويعملوا الأحكام.

ثم انتدب عشرة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ، وأمر عليهم خالد بن الوليد وأرسـل معـه الزبيـر بن العوام والفضل بن العباس والمقداد بن الأسود وغانم بن عـياض الأشـعري ومالكـا الأشتر وجميع الأمراء وأصحاب الرايات ينزلون علي المـدائن ويدعـو الناس إلي الإسلام، فمن أجاب فله مالنا وعليه ما علينا، ومن أبي فيأمروه بأداء الجزية، وإن عصي وامتنع فالحرب والقتال وأمرهم إذا حاصروا مدينة أن يشنوا الغارات علي السواد وأن بمصر مدينتين كما بلغني إحداهما يقال لها أهناس قريبة من مصر والثانية يقال لها البهنسا أمنع وأحصن وبلغني أن بها بطريقا طاغيا سـفاكا للـدماء يقـال له البطليموس وهم أعظم بطارقة مصر كما بلغني، وأنه ملك الـواحات فلا تقربوا الصعيد حتى تفتحوا هاتين المدينتين وعليك بتقوى الله في السر والعلانـية، أنت ومن معك، وأنصف المظلوم من الظالم، وأمر بالمعروف، وإنه عن المنكر وخذ حق الضعيف من القوى، ولا تأخذك في الله لومه لائم، وأقم أنت بمصر، وأرسل الأجناد وإن احتجت إلي مدد فأرسل وكاتبني، وأنا أرسل لك المدد، والمعونة

من الله عز وجل، وأسأل الله تعالي أن يكون لكم بالنصر المعونة والفتح، والحمد لله رب العالمين.

ثم طوى الكتاب وختمه بخاتم رسول الله ﷺ ودفعه إلي سالم فأخذه وودع الصحابة وودع قبر رسول الله ﷺ بعد أن توضأ وصلي ركعتين وسار ولم يزل سائرا حتى قدم مصر فوجد عمرا والصحابة نازلين بأرض الجيزة، وكان زمن الربيع، وهو جالس في خيمته وأصحابه عنده، وهذه الخيمة كانت لملك القبط من الحرير الأزرق والأحمر والأصفر سعتها ثلاثون ذراعا، وقد فرش فيها فرشا كان للقبط، وهو جالس يتحدث مع المقداد وخالد والفضل وغانم والأمراء جميعهم رضي الله عنهم وهو كأحدهم. قال سالم فأنخت ناقتي فسمعت عمرا يقول، وأنا خلف الخيمة قد أبطأ سالم. فقال خالد كأنك به وقد أقبل فهويت فأحس خالد بي ثم داخل الخيمة ولم يرني بعينه ولا غيره ولا علم بي، فقال سالم. فقلت لبيك يا أبا سليمان. فقال مرحبا بك يا سالم وحياك الله.

ثم تقدمت وسلمت علي عمرو وخالد وعلي بقية الأمراء، ثم ناولته الكتاب فقرأه إلي آخره وفهم ما فيه. فلما سمع الأمراء ما فيه فرحوا بذلك فرحا شديدا.

ثم إن عمرا استشار الأمراء في ذلك، وكانوا لا يفعلون شيئا إلا بمشورة بعضهم ولذلك مدحهم الله في كتابه العزيز بقوله عز وجل ﴿ وأمرهم شوري بينهم ﴾ فأشاروا عليه أن يرسل خلف الأمراء الجنود المتفرقة في البحيرة شرقا وغربا وأن يرتب الجيوش ليقصدوا الصعيد ويتوكلوا علي الله عز وجل.

(قال الواقدي) وكانت الصحابة لما فتحت مصر الوجه البحري قد تفرقوا فمنهم في الإسكندرية و أمسوس ودمياط ورشيد وبلبيس، وكان أكثرهم بوسط البحيرة في المكان المعروف بالمنزلة مثل القعقاع بن عمرو التميمي وهاشم بن المرقل وميسرة بن مسروق العبسي والمسيب بن نجيبة الفزاريى، فعندما استدعي عمرو رضي الله عنه بالنجابة والسعاة وعمرو بن أمية الضمري ومثل هؤلاء رضي الله عنهم أجمعين، وكتب الكتب وأرسلها للأمراء فعندها أجابوا بأجمعهم لأنهم رضي الله عنهم كانوا أشوق للقتال من العطشان للماء البارد الزلال، وتركوا في البلاد من

يحفظها أو يحرسها خيفة من العدو وأقبلوا نحو مصر مسرعين ونزلوا حولها وأخبر عمــرو رضي الله عنه بقدومهم فدخل دار الإمارة، وهي قريبة من الجامع العمري، وأقبلت السادات والأمراء يسلمون عليه، وكان ذلك النهار الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوية، وقيل اثنتين وعشرين والله أعلم.

قــال حدثنا محمد بن عبد الله. قال حدثنا عبيدة بن رافع عن أبيه جحيفة عن جابــر ابن عبد الله الأنصاري، وحدث بذلك ابن سلمه رضي الله عنه. قال لما قدمت الأمــراء والأجناد من الصحابة رضي الله عنهم أقاموا الأربعاء والخميس والجمعة فخطب عمرو رضي الله عنه بالناس. فلما فرغ من خطبته أمر الناس أن لا يتفرقوا حتى يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فقرأ عليهم الكتاب.

فلمــا فــرغ من قراءته وثبوا كلهم كالأسود الضارية المشتاقة إلي فرائسها، وقالوا كلهم سمعنا وأطعنا، ولأرواحنا في سبيل الله بذلنا، وللجهاد طلبنا، وفي الثواب رغبــنا، وإلي الجنة اشتقنا، ففرح عمرو بذلك. وقال إن أمير المؤمنين قد أمرني أن أولــي علــيكم سـيف الله، والــنقمة علي أعداء الله، صاحب القتال الشديد، والبطل الصنديد، خالد بن الوليد.

(قال الواقدي) وكان خالد بن الوليد صديق عمرو في الجاهلية وأسلما في يوم واحد، ثم التفت عمرو إلي خالد، وقال ادن مني يا أبا سليمان فدنا منه، فقال عمرو يا معاشــر أصحاب رسول الله ﷺ إنكم كلكم لكم الفضل وإني لست بأفضلكم وفيكم من هو ذو قرابة ونسب من رسول الله ﷺ وأنتم تعلمون ما فتح الله علي يديه من البلاد، وما أذل الله علي يديه من الأجناد.

(قال الراوي) فوثب الفضل بن العباس رضي الله عنه، وقال أيها الأمير إنا بذلنا أنفسنا في رضا الله عز وجل، وما نريد بذلك إلا رفعة عند الله عز وجل، وأن خالــدا من أخيارنا ولو أمرت علينا عبدا حبشيا لامتثلنا أمره في رضا الله عز وجل فناهيك بخالد، وهو سيد سادات قريش عزيز في الجاهلية والإسلام، فتهلل وجه خالد وعمــرو فــرحا، ثم أمرهم بالنزول جميعا بأرض الجيزة قريبا من الهرم الشرقي، وأقبلوا يضربون خيامهم حوله حتى تكاملت العساكر رضي الله عنهم أجمعين.

(قال الراوي) بسنده إلي الواقدي وابن اسحق وابن هشام لما تكاملت الجيوش ذلك في ربيع الآخر من السنة المذكورة صلي عمرو بأصحابه صلاة الصبح، ثم قام مـــن ســـاعته يمـــشي علي قدميه وحوله جماعة من المسلمين، ومعه خالد بن الوليد والمقداد بن الأسود الكندي والزبير العوام الأسدي والفضل بن العباس الهاشمي وعبد الـــرحمن بـــن أبـــي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال والمسيب بن نجيبة الفزاري والعباس ابن مردس وأولاد عبد المطلب وبقية السادات حتى طلع علي رابية وأشرف علي الجيش، فلما رأي اجتماعهم سر سرورا عظيما، ثـــم أمـــر بعرض الجيش فتقدمت الأمراء أصحاب الرايات وصار كل أمير يعرض جيـــشه وبنـــي عمه علي عمرو بن العاص، فكانت عدتهم فيما ذكر، والله أعلم ستة عـــشرة ألـــف فـــارس فانتدب منهم عشرة آلاف فارس كلهم ليوث عوابس وعليهم الـــدروع الداودية متقلدين بالسيوف الهندية، معتقلين بالرماح الخطية، راكبين الخيول العـــربية، مـــن خيار أمة خير البرية، فعند ذلك قال لهم عمرو : يا معاشر الأمراء أصحاب الرايات والسادات الأخيار إن خالدا أمير عليكم فاسمعوا له وأطيعوا، وكونوا كلمـــة واحدة، ونازلوا المدائن والقلاع، وشنوا الغارات علي السواد ولا تقاتلوا قوما حتـــى تدعـــوهم إلي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن أبوا فأدوا الجـــزية، فأن أبوا فالقتال بينكم وبينهم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين – وأرسلوا الطلائع ولا يكون في الطلائع إلا كل فارس كرار في الحرب والقتال وثبتوا أنفسكم ولا يغـــرنكم كثرة أعدائكم فأنتم الغالبون، فقد ذكر الله في كتابه المكنون المبين ﴿ كم مـــن فـــئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ (١) وأحسنوا نياتكم وثبتوا عزائمكم، فأنتم الغالبون والله معكم، وأنتم كلكم أهل الفضل والسابقة وأصحاب رسول الله ﷺ وقاتلتم بين يديه ولا تحتاجون إلي وصيتي بارك الله فيكم.

(قال الراوي) ثم إن عمرا استدعي بأصحاب الرايات، فكان أول من تقدم بعد خالـــد الزبيـــر بن العوام رضي الله عنه وهو راكب علي جواده الأغر شاك سلاحه فسلمه الراية وأمره علي خمسمائة، فلما خرج بعسكره هز الراية، وأنشد يقول :

---

[1] سورة البقرة : الآية : ٢٤٩

أنـــا الـــزبير ولد العوام ليث شجاع فارس الإسلام

قرم همـــام فارس هجام أقـــتل كل فارس ضرغام

وإنني يوم الوغي صدام وناصر في حانها الإسلام

قال : ثم استدعي بالفضل بن العباس وأمره علي خمسمائة فارسً من أصحاب رسول الله ﷺ فتسلم الراية بيده وتوجه، وهو يقول :

أنـــــا الفضل أبي العباس وفـــــارس منازل حواس

مـــعي حسام قاطع للرأس وفلق الهامات والأضراس

أفني به الأعداء بلا إلباس ومـــــا علي فيهم من باس

قـــال : ثـــم استدعي بزياد بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وسلمه الراية، وكان رضي الله عنه فارسا عظيما وبطلا صنديدا فتسلم الرايه وتوجه. وهو ينشد :

أنـــــا الفارس المشهور يوم الوقائع بحد حسام في الجماجم قاطع.

ورمحي علي الأعداء ما زال طائلا إذا التحم الأعداء للضد قاطع.

وعزمي في الهيجاء ما زال ماضيا بـــرأي سديد للمحاسن جامع.

أصول علي الأعــــداء صولة قادر وأشبعهم ضربا ببعض لوامع.

أمـــام الــــوغي من آل ذروة هاشم حماة البرايا كالبدور الطوالع.

أنـــا ابن أبي سفيان من نسل حارث تموت العدا مني وكل منازع.

قـــال : ثم استدعي من بعده عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمره علي خمسمائة فتسلم الراية وتوجه وهو يقول:

وحق مـــن أنزل الآيات في السور وأرسل المصطفي المبعوث من مضر

لا أنثني عن لقا الأعداء ولو جمعت حـــماة أبطـــالهم يومـــا كما الدبر

حتي أبيدهم ضربـــا وأتـــركهم فوق الثري خمشا مخدوشة الـــصدر

بــــكل قرم همـــام ماجد نـــجد إلي الـــوقائع يـــوم الحرب مبتدر

نـــحن الكـــرام الذي للدين أرسلنا أمـــام دين الـــوري غيث الندا عمر

قال : ثم استدعي من بعده جعفر بن عقيل وأمره علي خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول:

أنـــا ابن عقيل من لؤي وغـــالب هـــمام شجاع للأعادي غالب
حماة الوغي أهل الوفا معدن الصفا إلي جـــود يمنانا مسير الركائب
ولا يعرف المعروف إلا بـــعرفنا ولا الـــجود إلا جودنا كالمواهب
عـــلا مجدنا فـــوق الثنا وسناؤنا عـــلا شرفا من فوق كل الكتائب
فـــيا ويـــل أهل البغي منا إذا التقت فـــوارسنا فيهم بحد القواضب

قـــال : ثـــم استدعي من بعده أخاه الفضل وأمره علي خمسمائة فارس وسلمه الراية فتسلمها وتوجه وهو يقول:

أني أنـــا الفضل أبي عقيل أسير للـــحرب بـــلا تمهيل
بحد سيـــف قاطع صقيل به أبيد الـــكافرون الجهول
أنا ابن عـــم أحمد الرسول المرسل المبعوث في التنزيل

قـــال : ثـــم استدعي من بعده المقداد بن الأسود الكندي وأمره علي خمسمائة فارس وسلمه الراية فوجه وهو يقول:

أنـــا الـــمقداد في يوم النزال أبـــيد الـــضد بالسمر العوالي
وسيفي في الوغي أبدا صقيل طـــليق الحد في أهل الضلال
معي مـــن آل كندة كل قرم يـــجيد الطعن في يوم النزال
فياويل الـــعدا والـــروم منا إذا التحم الفوارس في القتال
وهم صرعي كأعجاز نـــخل بـــقطعها الفوارس بالنصال

قال : ثم استدعي من بعده عمار بن ياسر وأمره علي خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول:

أنـــا الهمـــام الفارس الكرار أفـــني بسيفي عصبة الكفار
إن جـــالت الخيل بلا إنكار وقام سوق الحرب من عمار
حمي لدين المصطفي المختار صـــلي عليه الواحد القهار
وعـــلي آله وصحبه الأخيار مـــا بـــان ليل وأضاء نهار

قـــال : ثم استدعي من بعده العباس بن مرداس السلمي وأمره علي خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أنــــا العبــاس ذو رأي قويم　　مـــعي سادات آل بني سليم
أذلك بــــهم حـــماة البغي لما　　تــري الهيجاء كالليل البهيم
وسيفي ماضي الــحدين أصحي　　لأهل الشرك والموت العميم
بــــه أفني الطـــغاة بكل أرض　　وأقتل كـــل أفــــاك أثيم
ونحن بنو سلــيم خــير قـــوم　　هدينا للــصراط المســتقيم

قـــال : ثم استدعي من بعده أبا دجانة الأنصاري رضي الله عنه وسلمه الراية فتوجه وهو يقول :

أســير بــاسم الواحد الــمنان　　جهرا لأهل الكفر والطغيان
أذيقهم ضــــربا علي الأبدان　　بــــكل هــندي مبيد الجان
أنصر دين المصطفي العدناني　　صلي عليه الـــملك الديان
وآلـــه والصحـــب والإخوان　　ما ناح قمري علي الأغصان

قـــال : ثم استدعي من بعده غانم بن عياض الأشعري رضي الله عنه وسلمه الراية وتوجه وهو يقول :

أني إذا انتسب الفوارس أشعري　　قرم الهمـــام في المعامع عنتري
بـــحماة أبطال الأعادي نزدري　　وبراحتي مـــن القواضب أبتري
يـــوم التلاطم للفوارس مسكر　　وأحوم حومات الغزال الجؤذري
فــــلأقــتلن فوارسا وعوابسا　　وأذيقـــهم مـــني العذاب الأكبر

قـــال : ثم استدعي من بعده أباذر الغفاري وأمره علي خمسمائة فارس وسلمة الراية فتوجه وهو يقول :

ســأمضي للعداة بلا اكتئاب　　وقــلبي للقا والحرب صابي
ولي عــزم أذل به الأعادي　　وأرجـو الفوز فيهم كالثواب
وإن صال الجميع بيوم حرب　　لكان الكل عندي كالكلاب
أذلـــهم بـــأبيض جوهري　　طليق الحد فيـــهم غير آبي

قـــال : ثــم استدعي من بعده القعقاع بن عمرو التميمي والمغيرة بن شعبة الثقفـــي وميــسرة بــن مسروق العبسي ومالكا الأشتر النخعي وذا الكلاع الحميري

والوليد وعقبة بن عامر الجهني وجابر بن عبد الله الأنصاري وربيعة بن زهير المحاربي وعدي بن حاتم ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم وقد اقتصرنا في أشعارهم خوف الإطالة وكل واحد يسلمه راية ويؤمره علي خمسمائة فارس قال فلما تكاملوا وتجهزوا خرج عمرو وأصحابه فودعهم وسارت الكتائب، وتتابعت المواكب يطلب بعضها بعضا وخلفهم الذراري والصبيان حتى أتوا الجيزة ونزلوا بمكان يعرف بالمرج الكبير قريب من تلك المدائن والقري والرساتيق وتقدمت الطلائع يتجسسون الأخبار، وقد كان بدهشور طريق عظيم من قبل مارنوس صاحب بأهناس، وكان فارسا مكينا وكلبا لعينا قاتله الله وكان يقول في نفسه أنه يناظر البطليموس في ولايته لكن البطليموس صاحب البهنسا لعنه الله كان أشد بأسا، وأعظم مراسا، وأكثر عددا، وأقوي مددا، وأوسع بلادا فكاتبه في ذلك وكاتب روسال صاحب الأشمونين وكاتب أقراقيس صاحب قفط، وكان يحكم علي أخميم وكاتب الكيلاج وكان يحكم إلي عدن والبحر المالح إلي بلاد البجاوة النوبة وحد السودان تسامع الناس بمسير العرب إلي الصعيد وكاتبت الملوك بعضها بعضا وماج الصعيد بأهله إلي حد الواحات ووقع الرعب في قلوبهم فعند ذلك وثب مكسوج ملك البجاوة وحليف ملك النوبة وجمعوا ما حولهم من أرض النوبة والبجاوة والبربر وأتوا إلي أسوان.

وكان مع ملك البجاوة ألف وثلثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفايح الفولاذ في كل قبة عشرة من السودان طوال القامة عراة الأجساد علي أوساطهم وأكتافهم جلود النمور وغيرهم ومعهم الدرق والحراب والكرابيج والقسي والمقاليع والأعمدة الحديد والطبول والقرون، وكانت عدتهم عشرين ألفا.

فلما وصلوا أسوان خرجوا إلي لقائهم بعسكرهم وأعلموهم بأمرهم وساروا إليهم بالملاقاة من الذرة والشعير والقصب ولحوم الخنازير والضباع وغيرها من الوحوش فأنزلوهم وضيفوهم ثلاثة أيام، ثم خرج بطريق أسوان ومعه جيش حتى وصلوا إلي ملك قفط صاحب القرية القريبة من قوص وعمل معهم مثل ذلك وسير معهم جيشا وساروا حتى وصلوا إلي أنصنا، وكان بها بطريق عظيم وبطل جسيم،

وكان منجما، وكان يحكم شرقا وغربا، وكانت مدينته عظيمة علي شاطئ البحر وبها جـند كثير وعجائب عظيمة ولها حصن عظيم من الحجر علوه ثلاثون ذراعا ومن داخلها قصور ومقاصير وكنائس وقلاع علي أعمدة الرخام وغيرها في المدينة، فلما نـزلت تلـك العساكر علي أنصنا خرج إليهم بطريقها جرجيس بن قابوس وتلقاهم وأرسـل معهم ابن عم له يسمي قيطارس، وكان فارسا شديدا في أربعة آلاف فارس ولـم يزالوا سائرين حتى نزلوا بوادي البهنسا عند الطريق يسمي قلوصا من بطارقة البطليموس.

فلما سمع بهم البطليموس خرج إلي لقائهم في عسكر عظيم زهاء من خمسين ألـف فـارس من البطارقة وعليهم الدروع المذهبة وأقبية الديباج المرقومة بالذهب الوهاج وعلي رؤوسهم التيجان المكللة باللآلئ والجواهر راكبين علي خيول وبراذين مـسرجة علـيها سروج الذهب الجنائب مغطاه بأغشية من الحرير الملون المرقوم بالذهب والفضة والخز، وكان معهم خمسون صليبا طول كل صليب أربعة أشبار من الذهب تحت كل صليب ألف فارس علي كل صليب رمانة من الذهب المنقوش وهم فـي زي عظيم عجيب، وقد أكثروا من الطبول والزمور وضرب القرون والمعازف حتـى ارتجت الأرض ومعهم الجمال والبغال والجاموس، فلما التقوا ترجلت الملوك والبطارقة للقائهم وسلم بعضهم علي بعض وتكلموا فيما بينهم بسبب العرب، فقال لهم البطلـيموس لا تطعموا فيكم ولا في بلادكم فإنما مثل العرب كمثل الذباب إن تركته أكل وإن منعته فر وهلك فاثبتوا واصدقوا العزم فلقد كاتبت لكم سنجاريب ملك برقة وكاتـبت ملك ألواح وكأنكم بهم قد أتوا إليكم ولولا أنني أخشى أن العرب يأتون إلي بـلادي لمـا يـسمعون أنّي خرجت إليهم فيشتغل جماعة بقتالكم وجماعة يأتون إلي بـلادي فيملكونها، وليس فيها من يذب عنها إذا خرجت معكم لكنت في خدمتكم فإنا نجد في الكتب القديمة أنهم إذا ملكوا البهنسا ونواحيها فلا تقوم لأهل الصعيد قائمة.

قال: فلما سمع الملوك ذلك صفقوا له ثم انتدب من بطارقته عشرين ألفا ممن عـرفت شجاعتهم وبراعتهم وملك عليهم صاحب الكفور، وكان كافرا طاغيا، وكان اسـمه بـولص، وكـان لعينا ودفع له صليبا من الذهب وعلما من الحرير الأطلس

الأصـفر مـرقوما بالذهب فيه صورة الشمس ودفع لهم ما يحتاجون له من الجنائب والقباب والسرادقات ومضارب الديباج الملون وأواني الذهب والفضة والصناديق المملوءة بالذهب والفضة والبراذين والبغال وعليها أحمال الحرير الملون وبعضها محمل بالمواكب يتلو بعضها بعضا حتى قربوا من مدينة ببا الكبرى فخرج إليهم بطريقها صندراس وتلقاهم وفعل معهم كما فعل البطليموس وأضافهم وجهز معهم جيشا عشرة آلاف فارس من صناديد بطارقته وولي عليهم بطريقا اسمه داردیس، وكان يناظر بطريق الكفور في الشجاعة والقوة والبراعة وساروا حتى قربوا من مدينة برنشت فخرج إليهم بطريقها، وأنه يناظر البطريق الأعظم رأس بطارقة الكوة ولم يزالوا سائرين حتى ملئوا الأرض شرقا وغربا هذا ما جرى لهؤلاء.

(قال الراوي) وأما ما كان من أصحاب محمد ﷺ فإنهم لما نزلوا قريبا من دهشور كما ذكرنا، وكانت العيون من المسلمين من بني طيء ومذحج ينزلون يتزيون بزي العرب المتنصرة يتجسسون الأخبار حتى اختلوا بالعساكر المذكورة، وكانوا حذاقا متفرسين، فلما رأوا ذلك هالهم أمره.

(قال الراوي) حدثني سنان بن قيس الربعي عن طارق بن مكشوح الفزاري عن زيد بن غانم الثعلبي، وكان ممن حضر الفتوح وشهد الواقعة صحبة جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه. قال بينما نحن جلوس نصلح شأننا بالمرج: ونحن علي أهبة السفر إذ قدمت الجواسيس فأخبروا خالدا بقدوم العساكر.

فقال لهم: هل حرزتم الجيوش، فقالوا نعم نحو مائتي ألف فارس وخمسين ألف راجل من النوبة والبربر والبجاوة والفلاحين وغيرهم وهم في أهبة عظيمة ومعهم ألف وثلثمائة فيل وعلي ظهورها الرجال كما وقع في يوم حرب العراق، فلما سمع الأمراء ذلك اضطربوا ثم ثبتوا جنانهم، وقالوا ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾[1]

قال خالد لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قرأ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ثم قرأ ﴿

[1] سورة التوبة : الآية : ٥١.

كـم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[1] ثم إن خالد قال لأصحابه ولا تهتموا لذلك واصبروا ﴿ وأنتم الأعلون والله معكم ﴾[2] فليست جموعهم بأكثـر من جموع اليرموك ولا من جموع أجنادين ومع ذلك فقد ملكتم مصرهم التي هي تاج عزهم ملكتم الوجه البحري وقتلتم مائة من ملوكهم وبطارقتهم، وقد صارت الـشام واليمن والعراق والحجاز بأيديكم، وقد دانت لكم البلاد، وقد كنتم قليلا فكثركم الله وكنـتم علي شفا حفرة من النار فأنقذكم منها وقاتلتم مع رسول الله ﷺ ونصرتم بالملائكـة ووعدكم علي لسان نبيكم ﷺ أنه يستخلفكم في الأرض كما استخلف الذين مـن قبلكم ومن قتل منكم كان في الجنة وتنتقل روحه إلي روح وريحان ورب غير غضبان، فلما سمعوا كلامه تهللت وجوههم فرحا وقالوا يا خالد نحن كلنا بين يديك، وقد وهبنا الله ابتغاء وجه الله ومرضاته.

(قـال الـواقدي) ثـم إن خالدا وجه يزيد بن معرج التنوخي إلي عمرو بن العـاص مسرعا وأعلمه بذلك فترك في مصر ابن عمه خارجة، وكان رجلا صالحا وأخـرج معـه أربعة آلاف فارس وترك في مصر نحو أربعين فارسا من أصحاب رسول الله ﷺ وجاء إليهم أربعة آلاف فارس، فلما أقبلوا سلموا عليه وقالوا كنا نحن نكفيك أيها الأمير.

فقـال لهـم : أعلم ذلك ولكنكم في أول بلاد العدو وما ينبغي أن أقعد عنكم، ففـرحوا بـذلك وتأهـبوا للقاء العدو، وكانوا كل يوم يخرجون الطلائع يتجسسون الأخـبار، فلما كان في بعض الأيام، خرج الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه عبد الله بن العباس وجعفر بن عقيل وأخواه علي ومسلم وعبد الله بن الزبير وسليمان بـن خالد بن الوليد، ومحمد فرجة بن عبد الله وعبد الله بن المقداد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعمرو بن سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وزياد بن المغيرة بن شعبة وتبعهم من الـسادات نحـو أربعمائة سيد من أولاد الصحابة والأمراء أصحاب الرايات، وألف

---

[1] سورة البقرة : الآية : ٢٤٩.
[2] سورة محمد : الآية : ٣٥.

وستمائة من أخلاط العرب من المهاجرين والأنصار لبسوا دروعهم، وتقلدوا بسيوفهم واعــتقلوا بــرماحهم، وتنكبوا بحجفهم وساروا إلي قريب من دير هنام بسفح الجبل يعرف بدير المسيح يكشفون الأخبار، فبينما هم كذلك إذا بغبار طلع إلي عنان السماء وانعقد، فنظر بعضهم إلي بعض وقالوا : هذا غبار وحش قال بعضهم : لو كان كذلك لكان تقطع قطعا وتفرق فرقا، إنما هذا عسكر جرار وأن الخيل إذا داست بحوافرها ارتفع الغبار.

(قــال الــواقدي) حدثنا أبو الزناد عن عبد الله عن أبي مالك الخولاني عن طــارق بن شهاب الجرهمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما نحن نتحدث مع الفضل وإذا بالغبار قد قرب منا وانكشف عن عشرة آلاف فارس ومعهم الأعلام والصلبان، فلما رأونا رطنوا بلغتهم ثم لم يهملوا دون أن حملوا.

(قــال الــراوي) وان ضرار بن الأزور قد انفرد ومعه مائتان من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل النجدة ، وساروا في طريق الجبل علي غير الجادة، فبينما هم يسيرون إذا بالغبار قد ثار وانكشف عمن ذكرنا فلما عاينوهم أيقنوا بالهلاك، فعندها وثــب ضرار رضي الله عنه وقال : لا فرار من الموت فلم يمهلوهم دون أن داروا علــيهم ، فرأوا لا بد لهم من القتال والتقت الرجال بالرجال وصبروا صبر الكرام و أحاطــت بهم الروم اللئام من كل جانب ومكان، فلله در ضرار لقد قاتل قتالا شديدا، فلــم يكن غير ساعة حتى قتل من جماعة ضرار وكبا به جواده فأسروا جماعة من أصــحابه، وكــان الــذي قاتلهم رأس البطارقة صاحب ببا الكبرى، فأوثقوا ضرارا وأصــحابه كتافا وربطوهم علي ظهور خيولهم و أرسلوهم إلي العسكر، وانفلت من القوم مولي من موالي عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، يقال له سالم فسار يجد في مــسيره، حتــى قــدم علي خالد وعمرو، فعند ذلك وثب المسيب بن نجيبة الفزاري ورافع بن عميرة الطائي وأخذا معهما ألفا من أصحاب رسول الله ﷺ وساروا ومعهما رجل من أسلم من الجيزة يدلهم علي طريق غير الجادة وكمنوا هناك عند الدير وقد سبقوا البطريق الذي أسر ضرار وأصحابه، وقد اختفي عنهم الأثر.

فقال الدليل : أظنكم قد سبقتم القوم أكمنوا ههنا، وكان الذي مضي بضرار وأصحابه خمسمائة فارس.

(قال الراوي) وكانت خولة بنت الأزور قد شق عليها أسر أخيها ضرار، فلما سار المسيب ورافع وجماعتهما في طلب أخيها، تهللت فرحا وأسرعت في لبس سلاحها وأتت إلي خالد وقد هم القوم بالمسير وقالت : أيها الأمير سألتك بالطاهر المطهر إلا ما شيرتني مع هؤلاء عسي أن أكون مشاهدة لهم. فقال خالد للمسيب ورافع أنتما تعلمان شجاعتها وبراعتها فخذاها معكما، فقالا السمع والطاعة ونزلوا بالمكان المذكور، فبينما هم كذلك كامنون بغبرة قد لاحت لهم، فقال لهم رافع أيقظوا خواطركم فأيقظت القوم هممهم، فإذا قد أتوا محدقين بضرار وهو متألم من كتافه، وهو ينشد ويقول:

ألا بلغا قوما وخولة أنني — أسير رهين موثق اليد بالقيد
وحولي علوج الروم من كل كافر — وأصبحت معهم لا أعيد ولا أبدي
فلو أنني فوق المحجل راكبا — وقائم حد العضب قد ملكت يدي
لأذللت جمع الروم إذلال نقمة — وأسقيتهم وسط الوغي أعظم الكد
فيا قلب مت هما وحزنا وحسرة — ويا دمع عيني كن معينا علي خدي
فلو أن أقوامي وخولة عندنا — وألزم ما كنا عليه من العهد
كبا بي جوادي فانتبذت علي الوغي — وأصبحت بالمقدور ولم أبلغن قصدي

(قال الراوي) فنادته خولة من مكمنها : قد أجاب الله دعاك وقبل تضرعك ونجواك، أنا خولة ، ثم كبر رافع والمسيب. قالا أكثر من ساعة وكنا إذا كبرنا تصهل الخيل إلهاما من الله تعالي، فلما كان أكثر من ساعة حتى قتلناهم عن أخرهم وخلص الله ضرارا وأصحابه ، أخذنا خيل القوم وأسلابهم وكانت أول غنيمة.

(قال الراوي) ولما تخلص ضرار وأصحابه ركب جواده عريانا وأخذ قناة كانت مطروحة، وحمل علي القوم وهو يقول:

لك الحمد يا مولاي في كل ساعة — مفرج أحزاني وهمي وكربتي
فقد نلت ما أرجوه من كل راحة — وجمعت شملي ثم أبرأت علتي

سأفني كلاب الروم في كل معرك وذلـك والرحـــمـــن أكـبر همتي
فيا ويل كلب الروم إن ظفرت يدي بـــه ســوف أصليه الحسام بنقمتي
وأتــركهم قتلي جميعا علي الثري كما رمة في الأرض من عظم ضربتي

(قال الراوي) فلما فرغ ضرار من شعره إذا بالخيل قد أقبلت منهزمة، وكان الـسبب في ذلك أنه لما حملت الروم علي الفضل بن عباس صاح هو وبنو عمه ولم يــرعهم وصـــبروا الكــرام، واشتد الزحام، وعظم المرام، وجرت الدماء، واسودت السماء وحمي الوطيس، وقل الأنيس، وهمهمت الأبطال، وقوي القتال، وعظم النزال، ودارت رحـــى الحـــرب، واشتد القتال وضربت الأعناق، وسالت الأحداق، وعظمت الأمـــور، وغابـــت الـــبدور، وكان المسلمون لا يظهرون فيهم لكثرتهم، ولا يعرف بعــضهم بعضا إلا بالتهليل والتكبير والصلاة علي البشير النذير، وقد صبر الفضل صبر الكرام فالله در الفضل لقد اصطلي الحرب بنفسه، فكان تارة يقلب الميمنة علي الميسرة وتارة يقلب الميسرة علي الميمنة ويقاتل والراية بيده، ولله در مسلم بن عقيل وأخــويه لقــد قاتلــوا حتى صارت الدماء علي دروعهم كقطع أكباد الإبل، ولله در ســليمان بن خالد بن الوليد المقتول بوقعة الدير قريبا من طرا بقرية تسمي دهروط، وقتل معه عبد الله بن المقداد وجماعة وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالي.

(قـــال محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه) وقاتلنا قتال الموت وأيقنا أن المحـــشر من ذلك الموضع ولم نزل في قتال ارتفاع الشمس حتي غربت، قد قتل مـــن الروم مقتلة عظيمة وتقدم الفضل إلي بطريق عظيم راكب كأنه برج من ذهب، وطعـــنه فـــي صدره فأخرج السنان من ظهره، فلما رأت الروم ذلك شجعوا أنفسهم وفـــشا القتال بيننا وبينهم، وقتل من المسلمين أربعون رجلا وقتل منهم ثلاثمائة لكن الـــرجل ما قتل منا حتى قتل جماعة من الروم، فبينما نحن كذلك وقد أيقنا أن الموت في ذلك الموقف ووطنا عليه نفوسنا، وإذا بغبرة قد طلعت والعجاج قد ارتفع وانقشع الغـــبار عـــن رايات إسلامية ، وعصابة محمدية زهاء من ألفي فارس، وفي أوائلهم فرســـان أمجـــاد ســـادات أنجـــاد، أحدهم المقداد والثاني زياد والقعقاع بن عمرو،

وشـــرحبيل بن حسنة ومعهم ألف فارس فلم يمهل المقداد دون أن حمل وخاض في الخيل وهو ينشد ويقول:

ألا إنـــني المـــــقداد أكبر صائل	وسيفي علي الأعداء أطول طائل
إذا اشـــتدت الأهوال كنت أمامها	وأضرب بالسمر الطوال الذوابل
ولي همة بين الوري تردع العدا	لـــــها تشهد الأبطال بين القبائل
فـــليس لسيفي في الأنامل مبارز	وليس لشخصي في الأنام منازل

ثم إنه خاض في وسط الحرب وحمل من بعده زياد بن أبي سفيان وهو ينشد يقول:

أنـــا زيـــاد بن أبي سفيـــان	جدي يري من أشرف العربان
كذا ابن عمي أحمد العدناني	مـــــعي حـــسام ثم رمح ثاني
أطـــــعن كـــل كافر جبان	وكـــــل قلـــب ناقص الإيمان

(قـــال الـــراوي) ثم غاص في وسط القوم فقلب الميمنة علي الميسرة والميسرة علي الميمـــنة وغاص في القلب فولت الروم من بين يديه منهزمين، وهو يضرب بالسيف فيهم طولا وعرضا، ثم حمل من بعده القعقاع بن عمرو التميمي وهو نيشد ويقول:

أنـــا الهمام الفارس القعقاع	لـــــيث هـــــمام ضيغم مطاع
معي حسام يبريء الأوجاع	ويـــــقطع الهامات والأضلاع
يا ويل أهل الشرك والنزاع	مني إذا في الحرب طال الباع

قال : ثم حمل من بعده شرحبيل بن حسنة وهو يقول:

ألا يا عصبة الإسلام صولوا	علي الأعداء بالسيف الصقيل
وأسقوهم حياض الموت جهرا	بلذع السمهري الرمح الطويل
وموتوا في الوغي قوما كراما	شـــــدادا في المعامع والنزول

(قال الراوي) ثم تتابعت الفرسان يتلو بعضها بعضا، هذا وزياد غائص في القوم كما ذكـــرنا، وقـــصد البطـــريق الأعظم صاحب ببا الكبرى وضربه علي عاتقه الأيمن بالـــسيف فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر، وقد أجابته المسلمون بتكبيرة واحدة، وكبـــرت الجبال وارتجت الأرض لوقع حوافر الخيل، وحمل كل أمير علي بطريق فقتله فلم تكن إلا ساعة حتى ولوا الأدبار وركنوا إلي الفرار لا يلوي بعضهم بعض،

وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى بلغت الهزيمة جرزة وميدوم، فبينما ضرار وأصــحابه مقبلون وإذا بالروم منهزمة كما ذكرنا وخيل المسلمين في أثرهم يقتلون ويأســرون ولــم يعلمــوا مــا جري لضرار ورفقته، فلما رأوه سلموا عليه وهنئوا وأصــحابه بالسلامة فقص عليهم ما جري لهم واجتمعوا بالمسيب وأصحابه وأروهم مكان المعركة ومكان القتلى، ففرحوا بذلك فرحا شديدا.

(قال الراوي) وإن عمرا وخالدا لما خرج الفضل وأصحابه قلق عليهم، فقال خالــد لعمرو: يا أبا عبد الرحمن لقد غرر الفضل وأصحابه بمن معه من المسلمين وإنــي أخشي أن تكون للروم طليعة فيغيروا علي أصحابنا. قال عمرو كذلك هجس بخاطــري يا أبا سليمان فما تري من الرأي؟ قال خالد الرأي عندي أن أرسل طليعة أخرى خلفهم قال. نعم الرأي، ثم استدعي بالزبير بن العوام وأبي ذر الغفاري رضي الله عــنهما وأعلمهما بذلك وأراد خالد أن يركب معهما فمنعه الزبير وحلف لا يسير إلا هو وانتخب معه فرسانا، فساروا حتى قربوا من القوم والتقوا بالمسلمين فوجدوهم قــد كسروا الروم كما ذكرنا، ثم جمع المسلمون الأسلاب والسلاح والخيل ورجعوا إلي أصحابهم وهم فرحون بالنصر علي أعدائهم.

(قــال الــراوي) فلما رجع المسلمون إلي العسكر، وكان معهم ستمائة أسير أعلــن المــسلمون بالتهلــيل والتكبير والصلاة علي البشير النذير فأجابهم المسلمون كــذلك، ولما عاينوا الأسلاب والأساري معهم فرحوا بذلك وسلم بعضهم علي بعض وتلقاهم عمرو وخالد وباقي الأمراء تفاءلوا وقدموا الأساري وعرضوهم علي عمرو وخالــد وأوقــدوا النيران بالمرج وباتوا يقرءون القرآن ويتضرعون إلي الله المنان، وليس فيهم إلا من هو راكع أو ساجد.

(قــال الــراوي) هــذا مــا جرى لهؤلاء، وأما المنهزمون فإنهم مضوا إلي البطارقة والملوك وأخبروهم بما وقع من أمرهم فعظم عليهم من قتل استعدوا للقتال وركــبوا خيولهم وإبلهم وأفيالهم وتنزينوا بزينتهم وساروا يجدون المسير وقد أكثروا والزمور والصنوج.

قال قيس بن الحرث: وأقام المسلمون بعد الوقعة يوما، فبينما نحن في اليوم الثانـــي بعد صلاة الصبح، وكان الأجاويد من الأمراء والأبطال في كل يوم يركبون ويستنشقون الأخبار، فبينما هم ينتظرون إذ ثار الغبار حتى تعلق بالجو وانكشف عن رجال وخيول كالجراد المنتشر، والسيل المنحدر، وارتجت الأرض من ازدحام الخيل وقعقعـــة اللجم، فرجعوا و أعلموا صاحب رسول الله ﷺ وصاح الصائح في العسكر: النفير النفير يا خيل الله اركبي وفي الجنة ارغبي والثواب اطلبي، فتواثب المسلمون إلـــي قـــدومهم ولبسوا دروعهم وإلي خيولهم فركبوها وإلي راياتهم فنشروها، وإلي زينتهم فأظهروها، وإلي قلوبهم من الغش فطهروها، ونفوسهم لله باعوها، فلم تكن إلا ســـاعة حتـــى اســـتعدوا، وأقام خالد وعمرو يعبيان قومهما للقتال فجعلا في القلب أصـــحاب الطعن والضرب مثل الفضل بن العباس وبني عمه من سادات بني هاشم وهم جعفر ومسلم وعلي أولادهم عقيل بن أبي طالب وزياد بن أبي سفيان بن الحرث ومثل هؤلاء الأبطال، وجعل في الجناح الأيمن الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الكـــندي والمـــسيب بن نجية الفزاري، وجعل في الجناح الأيسر القعقاع ابن عمرو التميمـــي وهاشم بن المرقال وغانم بن عياض الأشعري وأبا ذر الغفاري وجابر بن عـــبد الله الأنـــصاري ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم وثبت خالد وعمرو في القلـــب ومعهمـــا عـــبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقـــبة بـــن عامـــر الجهني وبقية الصحابة من الأمراء أصحاب الرايات ممن شهد الوقائع مع رسول الله ﷺ وعن عبد الله بن زيد عن أبي أمامة رضي الله، وكان من أصحاب الرايات. قال فبينما نحن كذلك إذا بأعلام المشركين قد انتشرت، وآياتهم قد ظهـــرت، وزينـــتهم وصـــلبانهم قد ارتفعت، ولغتهم بالكفر قد طمطمت، وأفيالهم قد أقبلت، ورجالهم للقتال قد تبادرت، فلما رأي المسلمون أخلصوا نياتهم، ولم يلههم ما رأوا مـــن عـــدوهم، وتـــضرعوا بالدعاء لخالقهم وقد استغاثوا بمالكهم وأكثروا من الصلاة علي نبيهم ولم يزالوا سائرين حتي قربوا من القوم ورأوهم رأي العين، فعند ذلك أمسك المشركون أعنة خيولهم وسلاسل أفيالهم وألقي الله الرعب في قلوبهم، ثم خرج منهم بطريق من عظماء بطارقتهم كأنه برج مشيد من ذهب وهو لا يبين منه

غير حماليق الحدق وتدوير المآقي وبين يديه فارس من متنصرة العرب وهو يصيح بملء فيه: يا معاشر العرب ارسلوا إلي الملك أحدا يكلمه فأعلم المسلمون عمرا وخالد بن الوليد بذلك، فأراد خالد أن يخرج إليه فمنعه الأمراء من ذلك، فعندها وثب المقداد بن الأسود وحلف ليخرج إليه هو بنفسه.

فقال عمرو وخالد: يا أبا عبد الله انظر ما يكلمك به الأعلاج وادعهم إلي كلمة الإخلاص المنجية يوم القصاص، فإن أبو فالجزية عن يد وهو صاغرون، فإن أبو قاتلناهم ﴿ حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾[1]

(قال الواقدي) فعندها ركب المقداد جواده وسار حتي وقف بين يدي البطريق وكان ذلك بولص صاحب الكفور الطغي اللعين بطريق البطليموس وقد أتي بإذن الملك البطارقة، فلما رآه كلمة بلسان عربي مبين، ثم قال يا بدوي أأنت أمير قومك. قال لا؟ قال فإني لا أريد إلا الأمير حتى أساله عما بدا لي لعل أن تكون فيه مصلحة بينكم وبيننا. قال المقداد سل عما بدالك وما تريد إنا قوم إذا فعل أحدنا أمرا وفيه نصح للدين ومصلحة للمسلمين لا ينكر عليه ذلك ويجيز له الأمير ما فعل فأجبروني عن أمر وشأنك. قال لا يكلمني إلا أمير القوم ، وإن كان عنده خوف مني ألقيت سلاحي.

فقال المقداد وقد ضحك من كلامه ويحك يا عدو الله لو كنت أنت وأمثالك بأسلحتهم ما فكرنا فيكم، وأن الواحد منا لو وقع في ألف منكم تلقاهم بنفسه ولا أهمه ذلك والمعونة من الله تعالي فإنا وطنا أنفسنا علي الموت واعلم أن هذه الدنيا فانية ولا يبقي إلا وجه الله تعالي فاسألني عما بدا لك. قال له: لا أسمع إلا كلام الأمير فدع عنك كثرة المطاولة. قال المقداد: إنا لنا أميرين : أحدهما متولي الأمر والآخر قائد الجيوش فأي أمير تريد.

قال أخبرني بأسمائهم ؟ قال أما الذي هو متولي الأمر فيسمي عمرو بن العاص والآخر يسمي خالد بن الوليد. قال إني أريد خالدا سمعت عنه أمورا وأحوالا وأن الروم تتحدث عنه بعجائب كثيرة.

---

[1] سورة يونس : الآية ١٠٩.

(قال الواقدي) وكان الملعون قد سمع بذكر خالد وفراسته وقال في نفسه لعلي أغـدره فإني إن قتلته كان لي الفخر علي جميع الروم وينكسر بذلك ناموس العرب وإن لـم أقدر عليه أسمع ما يقول من خطابه، قال فعند ذلك لوي المقداد عنان جواده ورجـع إلـي خالد، فعند ذلك قال خالد لأصحابه إن المقداد قد رجع وأن عدو الله لا يـريد إلا إياي. فإن طلبني مضيت إليه، وأن رأيت منه غدرا أخذت روحه من بين كتفيه وأستعن عليه بالملك العلام.

(قال الروي) فبينما خالد يتحدث بهذا الكلام إذا بالمقداد قد وصل وأعلم عمرا وخالـدا بما وقع. فعندها خرج خالد رضي الله عنه مبادرا عليه لامه حربه فتعلق به أكابـر أصحابه فحلف أنه لا بد له من الخروج إليه، ثم خرج مبادرا حتي وقف بين يديـه، فلما رأي خالدا قد وصل إليه احترز علي نفسه وأراد أن يخدع خالدا ويهجم عليه.

فقـال خالـد : أيهـا البطريق ها أنا خالد سل حاجتك الذي جئت لها وإياك والمخادعة فإني جرثومة الخداع. فقال بولص يا خالد اذكرلي الذي تريد وقرب الأمر بينـنا وبينكم واحقن دماء الناس واعلم أنك مسئول عن ذلك وواقف غدا بين يدي الله عـز وجل، فإن كنت تريد شيئا من الدنيا فلن نبخل به عليكم وندفع صدقة منا إليكم، لأنـه ليس عندنا في الأمم أضعف منكم حالا، وقد علمنا أنكم كنتم في بلادكم قبل أن تفـتحوا البلاد في قحط وجوع وتموتون هزالا وقد ملكتم بلادا وشبعتم لحما وركبتم خـيولا مـسومة وتقلدتم بسيوف مجوهرة وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم، فإن طلبتم منا شـيئا أعطيناكم إياه بطيبة قلوبنا فلا تطمعوا في بلادنا كم طمعتم في غيرها واقنعوا منا بالقليل.

قـال فلما سمع خالد مقالته قال يا كلب النصرانية وأخس من غمس في ماء المعمـودية إنه قد بعث الله إلينا نبينا فهدانا من الضلالة وأنقذنا من الجهالة، وأننا قد ملكنا الله بأيدينا ما أغنانا به عن صدقتكم وأحل لنا أموالكم وأباح لنا نساءكم وأولادكم إلا أن تقولـوا لا إلـه إلا الله محمدا رسول الله، فإن أبيتم ذلك فتؤدوا الجزية عن يد وأنـتم صاغرون، فإن أبيتم ذلك فالسيف حكم بيننا وبينكم حتى يحكم الله وهو خير

الحاكمـــين والله ينصر من يشاء، وإن الحرب والقتال أحب إلينا و أشهى من الصلح، وإن تزعمون أنه لم تكن أمة أضعف منا عندكم فأنتم بمنزلة الكلاب، فإن الواحد منا يقاتــل منكم ألفا، وإن هذا ليس بخطاب من يطلب الصلح، فإن كان هذا الطمع ترجو به أن تصل إلي بانفرادي عن أصحابي فذلك منك بعيد، وإن أردت القتال فدونك فإني كفء لك ولأصحابك إن شاء الله تعالي، فلما سمع بولص كلام خالد وثب في سرجه وقــال لــيس لك عندي إلا هذا السيف، ثم جرد سيفه ودنا من خالد رضي الله عنه وشــابكه وضـــرب بـــيده في درعه ومنطقته ووثب كل منهما علي الآخر واستغاث الملعــون بأصحابه وقال لهم بادروا إلي فقد أمكنني الصليب من أمير العرب فابتدر إلـــيه الـــبطارقة من كل جانب وخرج كردوس عظيم أكثر من مائتي فارس وجردوا السيوف وأتوا إلي خالد رضي الله عنه.

فلمـــا رآهـــم خالـــد مقبلين إليه وثبة الأسد وصاح بجواده وانتزع نفسه من البطـــريق بعـــد أن أحاطـــت به الروم وجاء كردوس ثاني وخالد يضرب فيهم يمينا وشمالا وعدو الله بولص يصيح ويقول ياويلكم خذوه قبل أن يفوتكم قال وكان ضرار والفضل بن العباس وعلي بن عقيل وعبد الله بن المقداد وسليمان بن خالد رضي الله عــنهم علـــي كثيب قريب من الروم، فلما رأوا الروم والسيوف بأيديهم وقد أحاطوا بخالد ركضوا خيولهم، وكان أول من ابتدر للحرب ضرار بن الأزور رضي الله عنه وهو ينشد:

عــليك ربي في الأمور المتكل	اغـــــفر ذنوبي إن دنا مني الأجل
يـــــارب وفقني إلي خير العمل	وعنـــي امـــــــح سيدي كل الزلل
أنـــا ضرار الفارس القرم البطل	باغي علي الأعداء أضحي المنصل
أقمع بسيفي الروم حتى يضمحل	مـــــالي سواك في الأمور من أمل

(قال الراوي) حدثنا رفاعة بن قيس. قال حدثنا حامد بن عياض عن أبيه عن جــده عـــن نافع بن علقمة الربعي. قال كنت في القلب في عسكر عمرو يوم وقعة الروم بمرج دهشور. قال بينما نحن ننظر إذ رأينا السيوف جذبت وأحاطت بخالد بن

الوليد فخرجنا كردوس من أجاويد الرجال من طرف الميمنة وبادرناهم ولحقناهم إذا قد سبق من ذكرنا يعني ضرارا والجماعة المذكورين، فكان أول من قدم علي الروم ضـــرار وهو عريان بسراويله قابضا علي سيفه وهو يزأر كالأسد والقوم من ورائه متبعوه حتى وصلوا وضرار أمامهم وهو واثب علي جواده وثبة الأسد مسرعا وهو يهز السيف وهو زاحف علي بولص فارتعدت فرائصه. وقال يا خالد دعني من هذا الـــشيطان واقتلنـــي أنت ولا تدعه يقتلني فإني أتشاءم من طلعته. فقال هو قاتلك لا محالة: هذا مبيد الأقران، هذا قاتل وردان وملك التركمان ومبيد عبده الصلبان ومن يكفـــر بالرحمن، فبينما هم في المجاروة وإذا بضرار قد أقبل وهز سيفه وصرخ: يا عدو الله لم تغن عنك خديعتك شيئا ولا غدرك بصاحب رسول الله ﷺ.

ثم أراد أن يضربه بسيفه فصاح به خالد اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله، ووصلت إليه أصحاب رسول الله ﷺ وكل يبادر إلي قتله، فقال لهم خالدا اصبروا.

قال: ونظر بولص لعنة الله إلي ما حل به قد جذبه ضرار من قربوس سرجه اقتلعه وجلد به الأرض فغشي عليه فأشار بإصبعه قال الأمان يا خالد. فقال له خالد: يـــا كلب النصرانية لا يعطي الأمان إلا لأهل الأمان أنت رجل أردت أن تمكر والله خيـــر الماكرين، فلما سمع ضرار ذلك لم يمهله دون أن ضربه بالسيف علي عاتقه الأيمن، فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار وبئس القرار وتبادرت أصحاب رسول الله ﷺ ووضعوا السيف فيهم ، فلما رأي الروم ما حل بهم حملوا بأجمعهم وتقدمت أصحاب الفيلة وعلي ظهروهم الـــرجال والتقـــي الجمعـــان واصـــطدم الفريقان واشتد القتال وعظم النزال وصفت الـــصفوف وازدحمـــت الألوف وتلفت النفوس وقطعت الرؤوس وبطل القيل والقال وقلـــت الرجال وزمجرت الأبطال واشتد القتال واتسع المجال وعظم البلاء واسودت السماء وثار الغبار وقدمت حوافر الخيل الشرار وطمطمت السودان وكفروا بالرحمن وثـــار العجاج وزمجرت الأعلاج وقتلت أصحاب الفيلة قتال شديدا وقد قسموا أربع فـــرق: فرقة مما يلي الميمنة، وفرقة مما يلي الميسرة، وفرقة مما يلي القلب، وفرقة ممـــا يلي العسكر تصايحت النوبة والبجاوة والروم، فالله در خالد بن الوليد لقد قاتل

قتالا شديدا، فكان تارة في القلب وتارة في الميمنة وتارة في الميسرة، وكذلك الأمير عمرو بن العاص والزبير بن العوام والفضل بن العباس الهاشمي والقعقاع بن عمرو التميمي وغانم ابن عياض الأشعري رضي الله عنه علي الساقة مع النساء والولدان والذراري والصبيان وانقطع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال إلي كردوس ينوف علي ألف فارس من الروم والسودان فغاصـوا فـي أوسـاطهم، وكان فيهم بطريق من بطارقة الكورة اسمه عرنان بن ميخائيل، فلما رأي ما حل به وبأصحابه بادر إلي الصليب يقبله وينظر إليه، ثم رطن الروم بلغتهم وأحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ وأرادوا أن يتمكنوا منهم، فعندها وثب عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلي ذلك البطريق فحمل عليه وكان علـيه ديـباجة صـفراء من فوق درعه، وعلي رأسه بيضة تلمع كأنها كوكب وفي وسـطه منطقة من الجوهر فتعاركا مليا وتصادما سويا، ثم إن عبد الرحمن ضربه بالـسيف فـي نحـره فأطاح رأسه عن بدنه، فلما رأي الروم ذلك حملوا علي عبد الرحمن وأصحابه بأجمعهم حملة واحدة وصبر لهم أصحاب رسول الله ﷺ وكل منهم مشتغل بنفسه عن نصره صاحبه وأيقنوا بالهلاك، وخرج عبد الرحمن وفي يده جرح هائل والدم يسيل عن درعه فتناول السيف بيده اليسري وجعل يقاتل بها وجرح هاشم بن المرقال أحد عشر جرحا في يده وفي وجه وهو يمسح الدم مرارا فأيقنوا بالهلاك.

وكـان الفـضل بن العباس وبنو عمه ممن ذكرنا تارة في الميمنة وتارة في الميـسرة وحملوا في أعراض القوم ووصلوا الكردوس الذي فيه عبد الرحمن وعبد الله بـن عمر وهاشم بن المرقال فوجدوا الروم قد أحاطوا بعبد الرحمن بن أبي بكر الـصديق وعقروا جواده من تحته وأصحابه يذبون عنه وعبد الله بن عمر تارة يمنع عنه بالسيف وتارة بالرمح وجراحاته تتدفق دما، وقد جرح عبد الله بن عمر في يده ست جراحات هائلة، فلما رأي الفضل ذلك بادر هو وأصحابه وكانوا عشرين فارسا وخـرقوا الصفوف وضرب فارسا ممن أحاط بعبد الرحمن علي رأسه فقطع البيضة ونزل إلي أضراسه فانجدل صريعا يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار، فلما سـقط عن جواده ابتدره عبد الرحمن وركب الجواد وقاتلوا أولئك حتى دفعوهم عن

أصـــحابهم، وكانت جماعة من الأوس وهمدان مما يلي الجناح الأيسر فعطف عليها كـــردوس من الروم والسودان فأزالهم عن أماكنهم وكشفوهم عن مراتبهم وفروا بين أيديهم، فصاح بهم أبو هريرة رضي الله عنه وابنه عبد الله ومالك بن الأشتر يا قوم لا تولـــوا فرارا من الموت أتريدون أن تكونوا عارا عند العرب فما عذركم غدا بين يدي رسول الله ﷺ؟ أما سمعتم قول الله عز وجل ﴿ فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره﴾[1] الآية : الله الله الجنة تحت ظلال السيوف الموعد عند قبر المصطفي، قـــال فلـــم يلتفـــتوا إلـــيهم ولم يقبلوا كلامهم ووصلت الهزيمة إلي غانم بن عياض الأشـــعري وأصـــحابه والنساء والصبيان، فلما رأت النساء ذلك صحن في وجوههم وفعلـــن كما فعلن يوم اليرموك وصرن يضربن وجوه الخيل بالأعمدة وقاتلت خولة بنت الأزور قتالا شديدا، فلما رأي غانم ذلك، وكان معه قيس بن الحرث ورفاعة بن زهيـــر المخزومـــي وخمـــسمائة فارس من أهل العدة والنجدة صاح غانم النجدة يا أصحاب رسول الله فتواثبوا إليهم وحملوا عليهم حملة واحدة بصدق نية وثبات، فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين.

(قـــال الـــرافدي) ولم يزل السيف يعمل في الرجال من أول النهار إلي وقت العصر وأنزل الله النصر علي أصحاب رسول الله ﷺ وكانت الأفيال والرجال الذين علـــي ظهوروهم تضرب أصحاب رسول الله بالنشاب فجاء مفرج بين عينيه إلي فيل مقـــدم علي أربعمائة فيل فطعنه في إحدي عينيه فاشتبك الرمح في عينه ما قدر أن يجذبـــه فبـــرطع الفيل هاربا وألقي ما علي ظهره من الرجال وداسهم برجليه فقتلهم فتـــبعه الفيلة التي خلفه، وألقت ما علي ظهورها من الرجال وداستهم بأرجلها فصاح مفـــرج دونكم وخراطيمها ومشافرها فإنها مقاتلة فابتدر بنو فزارة وبنو قراد وعينو عـــبس بـــضربون مـــشافر الفـــيلة حتى قتلوا منها مائة وستين فيلا وقتلوا من علي ظهـــورها مـــن الرجال ولم يزل القوم في الكر والفر والقتال الشديد حتى جاء الليل وحجـــز الفريقين ورجعت الروم والسودان إلي أماكنهم وتفقد المسلمون من قتل منهم فـــإذا هم مائتان وأربعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة وتفقد المشركون قتلاهم فإذا هم

---
[1] سورة الأنفال : الآية : ١٥١، ١٦١.

خمسة آلاف من النوبة والبجاوة والروم فبات المسلمون يتحارسون إلي الصباح ويقرءون القرآن ويدفنون قتلاهم، فلما أصبح الصباح وقاموا إلي إصلاح شأنهم إذا بالروم والسودان قد أقبلوا بعددهم وعديدهم، وقد أظهروا زينتهم واصطفوا خمسة كل صف أربعون ألفا والمشاه بين أيديهم خمسون ألفا. قال قيس بن علقمة: لقد دخلت الشام والعراق ورأيت جنود كسري والجرامقة واليرموك وأجنادين ووقعة مصر والقبط وفتح إسكندرية ودمياط فلم أر مثل كثرتهم في مرج دهشور، فلما رأيناهم وقد ركبوا ركب خالد وجعل يتخلل الصفوف ويقول لهم أنكم لستم ترون بمصر الصعيد جيوشا بعد هذا اليوم مثل هؤلاء وإن كثرتهم فلا تقوم لهم قائمة أبدا فاصدقوا في الجهاد عليكم بالصبر وإياكم أن تولوا الأدبار فتستوجبوا بذلك النار والصقوا المناكب ولا تحملوا حتى آمر بالحملة.

(قال الراوي) وإن البطارقة لما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ قد عولوا علي ضربهم شجع بعضهم بعضا، وقال لهم بطرس أخو بولس المقتول اعلموا أنكم إن انكسرتم لا تقوم لكم قائمة بعد هذا أبدا ويملكون بلادكم ويقتلون رجالكم ويسبون حريمكم وعليكم واستعينوا بالصليب فهو ينصركم.

(قال الراوي) وأما عمرو وخالد فإنهما قالا نريد من يكشف لنا عن قوم ويعود فوثب الفضل بن العباس رضي الله عنه وقال أنا ، فسار حتى قرب من القوم ورأي زيهم وأهبتهم ورأي شعاع البيض والبيارق والرايات كأجنحة النسور، فلما رآه القوم قالوا فارس قد طلع ولا شك إنه طليعة فأيكم يبتدره فابتدره ثلاثون فارسا، فلما نظرهم ولي كأنه منهزم وركض قليلا حتى بعد ثم لوي عنان الجواد نحوهم وطعن أول فارس والثاني والثالث فدخل الرعب في قلوبهم فانهزموا وتبعهم وهو يصرع فارس بعد فارس حتى صرع منهم عشرين فارسا فلما قرب من الروم ولي راجعا إلي المسلمين وأعلمهم بذلك فقالوا له غررت بنفسك يا أبن عم رسول الله فقال إن القوم طلبوني وخفت أن يراني الله منهزما فجاهدت بإخلاص فنصرني الله عليهم واعلموا انهم لنا غنيمة أن شاء الله تعالي.

قـــال : فأقبل عمرو وخالد يرتبان العساكر ميمنة وميسرة وجناحين كما تقدم الـــيوم الأول، فجعل في الساقة زياد أبن أبي سفيان بن الحرث في ألف فارس حول البنـــين والبـــنات والأمـــوال، وكانـــت فيهم النساء اللاتي تقدم ذكرهن في أجنادين واليرموك، وهن عفيرة بنت غفار وأم أبان بنت عتبة وأخت هند وخولة بنت الأزوز ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت ذراع ولبنى بنت سوار وسلمى بنت النعمان وهند بنت عمرون وزينب الإنصارية، فهؤلاء من النساء اللاتي عرفن بالشجاعة، فقال لهن خالـــد يـــا بنات العرب لقد فعلتن فعالا أرضيتن الله ورسوله والمسلمين بها وقد بقى ولكـــن ذكـــر يـــتحدث به جيلا بعد جيل وهذه أبواب الجنان قد فتحت لكن، وأبواب النيـــران، وقـــد فتحت لإعدائكن، وإني أحرضكن إذا جاءت الروم والسودان إليكن فقاتلن عن أنفسكن كما قاتلتن في يوم أجنادين ويوم اليرموك.

فإن أريتن أحد هاربا فدونكن وإياه وأشرفن عليه بولده وقلن له إلي أين تولي عن أهلك وولدك وحريمك وحرضن المسلمين على ذلك، فقلن أيها الأمير ما يفرحن إلا أن نموت أمامك يأبا سليمان لنضربن وجوه الروم والسودان لا يبقى لنا عذر. قال فشكرهن على ذلك.

ثـــم عاد خالد إلي الصفوف وجعل يدور بينها بجواده ويحرض الناس على القتال وهو يقول :

أيها الناس انصروا الله ينصركم، وقاتلوا من كفر وأحسبوا أنفسكم في سبيل الله واصـــبروا على قتال أعداء الله، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ولا تحملوا حتى آمـــركم بالحملـــة ولتكن سهامكم تخرج من كبد قوس واحد، فإن السهام إذا خرجت جمـــيعا لم يخل أن يكون فيها سهم صائب، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكـــم تفلحون.. واعلموا أنكم لا تقلون بالوجه القبلي مثل هؤلاء اللئام فإنهم حماتهم وبطارقتهم وملوكهم، فقالوا سمعا وطاعة، وأقبل خالد ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة الطائي والمسيب بن نجيبة الفزاري وذوي الكلاع الحميري وربيعة بن عباس ومالك الأشتر والعباس بن مرداس السلمي ونظائرهم من بقية الأمراء.

ثم زحفوا بسكينة ووقار. فلما رأى الروم ذلك والسودان زحفوا وكانوا ملء الأرض طولا وعرضا فلما التقى الفئتان، وتراكم الجمعان، وقد أظهر أعداء الله في زينـــتهم الصلبان والأعلام، ورفعوا أصواتهم بالكفر والبهتان، فبينما الناس كذلك إذ خـــرج راهـــب كبير عليه جبة سوداء وقلنسوة وزنار بلسان عربي أيكم أمير القوم فيخاطبني ويخرج إلي فخرج إليه خالد فقال له أنت أمير القوم.

قـــال خالـــد : كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنة رسوله. فإن أنا بـــدلت أو غيرت فلا طاعة لي عليهم ولا إمارة ... فقال القس : أعلم أنكم قد ملكتم بـــلادا وقدمـــتم إلي بلاد ما جسر ملك من الملوك ان يتعرض لها ولا يدخلها، وإن ملـــوكا كثيرة أرادوها فرجعوا خائبين وأفنوا أنفسهم عليها، وأن النصر لا يدوم وأن الملوك أرسلوني إليكم.

فإن سمحتم نجمع لكم مالا ونعطي لكل واحد منكم ثوبا وعمامة وديناراً ولك أنت مائة ثوب ومائة عمامة ومائة دينار ولكل واحد حمل من البر وحمل من الشعير ولك عشرة أحمال ولصاحبكم عمرو عشرة آلاف دينار ومثلها عمائم ومائة حمل بر ومائـــة حمـــل شعير وأرحلوا عنا وأنتم موقرون أنفسكم، فإننا عدد الجراد لا تظنونا كمـــن لقيـــتم مـــن الفرس والروم وأهل الشام والقبط. فإن في هذا الجيش من النوبة والبجاوة والسودان والروم وكبار البطارقة والأساقفة ونجمع عليكم ما لا طاقة لكم به من بلاد السودان والواحات وكأنكم بالنجدة قد وردت علينا بقية الروم لم تأت إليكم، وإنما أرسلوا من يقاتل عنهم فقال خالد والله ما نرجع عنكم إلا بأحدى ثلاث خصال : إما إن تدخلوا في ديننا اوتؤدوا الجزية او القتال، وأما ما ذكرت أنكم عدد الجراد فالله قـــد وعـــدنا بالنصر على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزله في كتابه، وأما ما ذكـــرت أنكـــم تعطوننا من الثياب والعمائم فعن قريب نلبس ثيابكم وعمائمكم ونملك بلادكـــم جمـــيعها كمـــا ملكنا الشام ومصر والعراق واليمن والحجاز والروم؛ فقال الراهب أنا أرجع أخبر أصحابي بذلك.

فإنـــي قـــد أتيت من قبل البطليموس صاحب مدينة البهنسا، وقد أرسلني إلي صـــاحب أهناس واتفق الملوك والبطارقة وأرسلوني إليكم، وأنا أرجع إليهم وأخبرهم

بجـوابك. ثـم أن القس لوي راجعا من حيث جاء، فلما رجع إليهم وأخبروهم بذلك كاتـبوا ملوكهم على ذلك وأرسلوا جوابهم بالقتال، فلما وصلت الكتب تقدمت الروم والـسودان قدمـوا بـين أيـديهم الفيلة وأمامهم الرجالة بالقسي والسيوف والدراق والمزاريق فصاح الفضل بن العباس ورفاعة بن زهير المحاربي والقعقاع بن عمرو التميمي وشرحبيل بن حسنة والمقداد بن الأسود الكندي ومعاذ بن جبل، وقالوا معاشر المـسلمين اعلموا أن الجنان قد فتحت والملائكة قد أشرفت والحور تزينت وأشرفت مـن الجـنان ثم قرأ "إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" ثم رتبوا الصفوف فتقدم خالد وقال أقرنوا المواكب وأثبتوا واعلموا أن هؤلاء أكثر منكم بعـشرة أمـثالكم وأزيد فطاولهم إلي وقت العصر. فإنها ساعة النصر على الأعداء وإياكم أن تولوا الأدبار وازحفوا على بركة الله وعونه.

(قـال الـراوي) وتزاحمت السودان والبربر والنوبة والبجاوة، فلما تقارب الجمعان رمت أصحاب الفيلة نشابهم فكانت كالجراد المنتشر، فقتلوا رجالا وجرحوا أبطـالا وخالـد تاره يضرب بسيفه في الميمنة وتارة في الميسرة وكان في أصحاب الفـيلة من السودان والبربر سواكن يسمونهم القواد شفاههم العليا مشقوقة وبها خزام مـن نحـاس. فإذا كان وقت الحرب لا يخرجون القواد إلا إذا حمي الحرب واشتد الطعـن والضرب وكانوا سواد طوال طول كل واحد منهم عشرة أذرع فإذا أرادوا الحـرب جعل في كل حزام سلسة بطرفين في كل طرف واحد من البربر. فإذا وقع صـلح بـين الفريقين وإلا زحفوا بهم وأطلقوا السلاسل ودفعوا لهم أعمدة من حديد طـوالا فيـضرب الـواحد الفارس والفرس فيقتلهما بضربة ومنهم من يركب الفيلة ويقاتـل على ظهورها، فلما التقى الجمعان خرجت تلك القواد وعلى أجسادهم جلود النمور وفوق أكتافهم مربوطة وفي أوساطهم مثل ذلك وهم عراه الأجساد والرؤوس ليس عليهم غير ما ذكرنا وبأيديهم الأعمدة والرجال يقودنهم بتلك السلاسل والجيوش ينظرون متى يؤمرن بالحملة، فلما رأي المسلمون فمنهم من ثبت ومنهم من جزع.

قـال وبرز البطريق أخو بولص المقتول وهو راكب على جواد عال وعليه لحاف من جلود الفيلة وقاتل.

(قال الراوي) حدثني خالد بن أسلم عن طريف بن طارق كان من الأزد. قال لما فعل البطريق ذلك ولت الأزد من بين يديه منهزمين، وإذا بفارس قد أقبل يركض بجواده، وهو عاري الجسد حتى قرب من القوم، وأنشد يقول :

لقد ملكت يدي سنانا وصارمـــا	أذل عداه السوء إن جئت قادمـــا
وأتركهم شبه الرخام إذا مشـــى	عليه شجاع لا يزال مصادمـــــا
وإلا كالغنام مضين بقفـــــــرة	وأصبح مولاها عن السعي نائما
قد ملك الليث الغصنفر جمعها	وأصبح فيها بالمخالب حاطمـــا

(قال الراوي) وصاح الفارس . أنا ضرار بن الأزور. أنا قاتل ملوك الشام أنا ضرار والمسلط على من يكفر بالرحمن، أنا قاتل بولص الكلب ذي الطغيان.

فلما سمع الروم كلامه عرفوه فتقهقروا إلي ورائهم فطمع وحمل عليهم، فقال بطـــرس من هذا البدوي الذي لم يزل عاري الجسد يقتل بالسيف مرة وبالرمح مرة. قالـــوا هذا ضرار بن الأزور فتحير الملعون، وقال هذا قاتل أخي، ولقد اشتهيت أن آخـــذ بثأره، ثم عزم علي الخروج إليه فسبقه بولص رأس بطارقة الكورة، وقال أنا أخذ بثارك. ثم حمل علي ضرار فتجاولا طويلا وافترقا مليا فما كان أكثر من ساعة حتـــى طعـــنه ضرار طعنة صادقة في صدره خرقت الدروع، وخرجت من ظهره فانجدل صريعا وعجل الله بروحه إلي النار، فقال بطرس هذا جني وليس للإنسان أن يقاتل الجن، ثم لبس لامه حربة وتعصب بعصابة من اللؤلؤ الرطب وحلف لا يخرج إليه غيره وحمل علي ضرار، وقال دونك والقتال فلم يفهم ضرار ما يقول، ثم حمل علـــيه وأخرج صليبا من الذهب كان معلقا في عنقه فضحك ضرار عليه، وقال أنت تستعين بالصلبان وأنا أستعين بالملك الديان.

ثم أري كل منهما ما أدهش الناس من الحرب فصاح خالد وبقية الأمراء ما هـــذه الفترة يا ضرار والجنة قد فتحت لك ولعدوك قد فتحت النار، فاستيقظ ضرار وحمـــل علـــي البطريق وصاحت الروم بصاحبها وصاروا في حرب عظيم وحميت عليهم الشمس، وثار الحرب حتى كل منهما الساعدان وعرق تحتهما الجودان فأشار البطـــريق إلـــي ضرار أن يترجل ويترجل البطريق معه شفقة علي الجوداين، وإذا

برأس بطارقة أهناس قد أخرج له جوادا مجللا بالحرير ليركبه، فلما نظر ضرار إلي ذلـــك صـــاح بجواده أثبت معي هذه الساعة وإلا أشكوك لرسول الله ﷺ فذرفت عين الجواد بالدموع وحمحم وجري أكثر من جريه المعتاد وتلقي ضرار البطريق وحمل عليه وطعنه بعقب الرمح فأرداه وأخذ جواده وأراد قتله.

وإذا بكـــردوس خـــرج مـــن الروم ومعهم الكلب الكبير شاول أحد بطارقة الأشـــمونيين وأحاطـــوا بضرار وكان علي رأس شاول تاج من الذهب الأحمر، فلما رأي الـــصحابة الكـــردوس الذي خرج علي ضرار والتاج يلمع علي رأسه، فعندها خرج خالد رضي الله عنه في عشرة من خيار قومه وهم الفضل بن العباس بن عبد المطلـــب وأخوه وعبد الله بن جعفر ومسلم وعلي أولاد عقيل وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بـــن المقـــداد وقوموا الأسنة وأطلقوا الأعنة وصبر ضرار للروم حتي وصلت إليه الأمراء، وقالوا:

أبشر يا ضرار فقد أتاك النصر والفرج وقد ذهب عنك الخوف والجزع فلا تخف من الكفار واستعن بالله الواحد القهار.

فقـــال ضـــرار: ما أقرب الفرج من الله والتقت الرجال بالرجال وطلب خالد صـــاحب التاج والعصابة وضرار مع خصمه، فلما رأي شاول البطريق المسلمين قد أحدقوا به وما حل بجماعته اندهش وارتعد، هذا وضرار مع خصمه وقد أراد الهرب فألقـــي ضـــرار بنفـــسه من علي جواده وتبعه حتى لحقه، ثم رمي الرمح من يده وتواخذا بالمناكب وتصارعا وكان عدو الله كأنه قطعة من جبل وضرار نحيف الجسم غيـــر أن الله أعطاه حولا وقوة، فلما طال بينهما العراك ضرب ضرار بيده في بطن عدو الله فقلعه وجلد به الأرض فصاح يستنجد بالبطارقة وتصارخت الروم والسودان وأصـــحاب رســـول الله ﷺ فلم يمهله ضرار دون أن ركب عليه، وهو يعج كالبعير، فعـــندها أظهـــر ضرار سيفه ومكنه من نحره فقتله فزعق سمعها العسكران فحملت الروم والسودان، هذا وضرار قد احتز رأسه وقام عن صدره.وهو ملطخ بالدماء.

ثم كبر المسلمون ودنا الفريقان بعضهم من بعض والتحمت الأبطال، وقوي القـتال، وعظـم النزال، وسال العرق، وازورت الحدق، وعظمت الرزايا وأظلمت الدنـيا، ودارت رحي الحرب، وقوي الطعن والضرب، وضاقت الصدور، واشتدت الأمـور، وضـاقت المذاهب، وقطعت المناكب، وما كانت تري إلا دما فائرا وكفا طائـرا، وجـوادا غائـرا هذا وقد زحفت السودان، وأصحاب السلاسل ذوو الكفر والطغـيان، وضـربوا بالأعمـدة الحديد، ويومهم يوم شديد، وبانت الشجعان، وفر الجبان، وبقي حيران، وعمرو بن العاص يحرض الناس علي القتال، ويقول:
يـا أيهـا الـناس ويا حملة القرآن اذكروا غرف الجنان، فسر الناس بقوله ونشطوا وصـارت الـسودان يـضربون الفارس مع الفرس بالعمد الحديد فيقتلونهما جميعا، وكـذلك أصحاب الفيلة بالنشاب، ويضربون إلي أن جاء وقت العصر، وقد قتل من الفـريقين خلق كثير وظفر خالد بخصمه شاول لعنه الله وضربه بالسنان في صدره فخرج السنان يلمع من ظهره ووقع علي الأرض يخور بدمه وعجل الله بروحه إلي الـنار وبئس القرار. قال ولما عظم القتال والبلاء. قال رفاعة المحاربي، وقد انتخب مـن بنـي محارب ولبيد ومالك خمسمائة فارس وقصد الفيلة، وقال يا وجوه العرب دونكـم وأعيـنها ودنا من الفيل الأبيض، وهو قائدها وهي خمسمائة فيل وتقدم إليه والسيف في يده، وهو ينشد ويقول:

يـالك مـن ذي جثة كبيرة لقيت كـل شـدة خـطيرة
اليوم قد ضاقت بك الحظيرة حتي تري ملقي علي الحفيرة

قـال : ثم ضربه بالسيف فولي هاربا، ثم برك وكان عليه عدة من السودان في قبة من الأديم فلما سقط الفيل إلي الأرض وفي يد عمود فضرب به رفاعة فزاغ عـنه وضربه رفاعة علي عاتقه الأيمن فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عـدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار فتلاحقت العرب بإعجاز الفيلة وصاروا يطعنون الفيلة في أعينها كما ذكرنا فولوا منهزمين.

قال : وقصد خالد والمقداد و أجواد الأمراء الذين تقدم ذكرهم وطلبوا من الله النـصر والثبات وصاروا يأتونهم وهم فارس عن اليمين وفارس عن اليسار فيقتلون

مـساك السلاسل ثم يمسكون أطراف السلاسل ويطلقون الأعنة فينقاد معهم كالبعير الـشارد فـيأخذون العمـود من يده ويقتلونه شر قتله ولم يزل القوم في قتال ونزال وأهـوال حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين وقد قتل من الفريقين خلق كثير، وبات المسلمون يتحارسون إلي الصباح.

(قـال الراوي) وكان قد أثخن بالجراح جماعة من المسلمين في ذلك النهار وكـان المـسلمون طائفة يدفنون القتلى، وطائفة يداوون الجرحى، وطائفة يقرءون القـرآن، وطائفة يصلون وطائفة نيام من كثرة ما لحقهم من التعب، وخالد بن الوليد والزبيـر بـن العواد والمقداد بن الأسود وعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه يدورون حول العسكر إلي الصباح، فلما لاح الفجر أذن المؤذنون وصلي عمرو بن العـاص بالـناس الصبح بسورة الفتح ثم دعوا الله عز وجل أن يرزقهم النصر، ثم تبادروا إلي خيولهم فركبوها ورتبوا صفوفهم كما ذكرنا فيما تقدم بالأمس، فلما فرغ المـسلمون مـن تعبية الصفوف أقبل الأمراء يحرضون الناس علي القتال، رافع بن عميرة الطائي والحرث بن قيس ورفاعة ابن زهير في خمسمائة فارس.

(قال الراوي) قال عبادة بن رافع حدثنا سالم بن مالك عن عبد الله بن هلال، قـال لما رتبت الصفوف والتقي الجمعان وكثر القتال وكل واحد اشتغل بنفسه ونحن نـذب عن النساء والصبيان، والنساء اللاتي تقدم ذكرهن يقاتلن أشد القتال إذ جاءنا كردوس عظيم من البطارقة والسودان والبجاوة ومعهم زهاء من ستمائة فيل وغافلونا ونحن مشغولون بالقتال واقتطعوا قطعة كبيرة من الإبل والرجال والنساء والصبيان زهـاء من ألف بعير ومائتي امرأة وغير ذلك، وكان في ذلك زائد بن رباح البكري وعباد بن عاصم الغنوي ومعهما مائتا فارس فقاتلوا قتال الموت حتى أثخنوا بالجراح وبـنت زاهـر ونظائرها من النساء لقد قاتلن حتى ضربن بالسيف علي رؤوسهن وسـالت الدماء علي وجوههن وهن يقلن الله الله يا نساء العرب، فقاتلن قتال الموت وقتل من المسلمين خمسة عشر نفرا ختم الله لهم بالشهادة وساقوا النساء والصبيان.

فرجع فارس إلي خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأعلمهما بذلك وهم في أشـد القتال فتصايحت المسلمون وخرج جماعة من الأمراء من وسط المعركة وهم

الفضل بن العباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وزيـــاد بـــن أبـــي سفيان وعبد الله بن أبي طلحة وضرار بن الأزور وجماعة من الأمراء وتبعهم ستمائة فارس من العرب من صناديد القوم وأدركوهم عند أول الجبل وهـــم يـــريدون جهة الفيوم، فعند ذلك زعق ضرار والفضل بن العباس إلي أين يا أعـــداء الله؟ فتراجعت الروم والسودان عنهم واقتتلوا قتالا فابتدر إلي مقدم السودان وطعنه في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره، وكذلك بن العباس تقدم إلي بطريق عظـــيم وطعنه في لبته فأطلع السنان يلمع من قفاه.فانجدل يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار.

قـــال : واستمروا يقاتلوا حتى قتلوا مقتله عظيمة، فلما عاينوا إلي ما بأيديهم مـــن الغنـــيمة وولوا ووثب المسلمون وردوا السبي والحريم، فكانت النساء يضربن وجوه الخيل بالعمد فيكبو الجواد بصاحبه فتتعلق المرأة بالفارس وتجذبه إلي الأرض فـــتجلد به الأرض ثم تضربه فتقتله حتى قتلن جماعة من الروم والسودان والبجاوة وغيرهم.

فلمـــا رأوا ذلـــك ولـــوا منهـــزمين من بين أيديهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأســـرون حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم نحو ستمائة أسير من الروم والسودان وزحفوا وقد غنموا أسلابهم وخيولهم.

(قـــال الـــواقدي) هذا ما جري لهؤلاء، وأما العسكر فإنهم لم يزالوا في قتال شـــديد وأمـــر عتيد وضرب وطعان وقتل رجال وجندلة أبطال وفرسان، وقد قامت الحـــرب علي قدم وساق، وضربت الأعناق وصالت الشجعان وولي الجبان حيران ودارت رحـــي الحـــرب واشتد الطعن والضرب وقطعت المعاصم وطارت الجماجم وحامت الطيور واشتد الزحام وعظم المرام وضاقت الصدور وعظمت الأمور واشتد الغـــبار وقل الاصطبار وقاتلت الأمراء بالرايات وبربرت السودان بلغاتها ورفعت الـــروم أصواتها وضربت ببوقاتها وطعنت برماحها ورمت بنشابها وحارت الأفكار وعمـــيت الأبصار وثار الغبار وأظلم النهار، وكان شعار المسلمين يا نصر الله أنزل وصـــبر المـــسلمون لهم صبر الكرام، فلله در الزبير بن العوام والمقداد ابن الأسود

والفضل بن العباس وعقبة بن عامر والمسيب بن نجيبة الفزاري ونظائرهم من الأمراء فلقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا وصبروا صبر الكرام.

وأما عمر وخالد والقعقاع بن عمرو وسعيد بن زيد فلقد كانوا يقاتلون قتال الموت وزحفت الفيلة برجالها وقاتلت الروم بأبطالها والسودان بأفيالها فيخرج كالجراد المنتشر حتى قلعت أعين كثيرة في ذلك اليوم فما كنت تسمع إلا من يصيح وايداه والفيلة تحطم والسودان يرمون الأبطال، فعندها وثب رفاعة بن زهير المحاربي وأتي إلي خالد وعمرو، وقال أيها الأمراء إن دام هذا الأمر هكذا هلكنا عن أخرنا.

قالا: فما الرأي يا أبا حازم؟ قال الرأي أن نجمع ثيابنا ونغمسها زيتا ودهنا ونجعلها علي رؤوس الرماح وتجعل في أعلاها نارا، ثم نأمر رجالا يجمعون القيصوم وغيره ونجعله في غرائر علي ظهور الجمال عرايا ونشغلهم بالقتال، ثم تأتي الفرسان تمانعهم وتساق عليهم الجمال فإنها إذا أحست بالنار حطمتهم فلا يصبرون علي ذلك والمعونة من الله تعالي فاستصوبوا رأيه وأعدوا رجالا لذلك وناوشوهم القتال فلم يكن إلا ساعة حتى تهيأت المكيدة وجمعوا من الفرسان ألف فارس وصبغوا تلك الثياب بالدهن والزيت وأطلقوا النيران برؤوس الأسنة وحملوا الغرائر بالقيصوم غيره وأشعلوا فيه نارا وضعوا الحراب في أجناب الإبل، فلما أحست بالحراب في أجسامهم والنار في ظهورها فعندها حطمت الروم والسودان، فلما رأت الفيلة ذلك طارت عقولها وقطعت سلاسلها وداست قوادها ورمت ما علي ظهروها من الرجال وداستهم بأخفافها ورجعت خيل الروم وبراذينها وهربت بغالها وذابت قلوب الرجال وضربت الأمراء في الأعداء بسيوفها وطعنت برماحها ورمت بنشابها، قال المسيب بن نجيبة ولقد رأينا طيورا أظلتنا في زي النسور وكان الطائر يرفرف بجناحه علي وجه الكافر ورأسه ثم يضع مخالبيه في عينيه فيرميه إلي الأرض فلم تكن إلا ساعة بعد صلاة العصر حتى ولت الروم الأدبار وركنوا إلي الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى جاء الليل وأظلم النهار ووصلت الهزيمة إلي القرية المعروفة بالدير إلي اللاهون وإلي أجناس وإلي ميدوم وتبعهم

المسلمون الليل كله إلي الصباح وقد تفرق شملهم وشرد جمعهم وأسر منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف، وقتل منهم ما لا يحصي.

قال رافع بن أزد الجهني: لما رجعنا إلي مكان المعركة وجدنا الأرض قد امتلأت من قتلي الروم والسودان والبجاوة وغيرهم واختلط جماعة من قتلي المسلمين بهم ما عرفناهم من الروم إلا أن الروم كان بأيديهم صلبان، والمسلمون ليس لهم ذلك فميزناهم منهم بذلك وجمعنا جريد النخل والقصب ووضعنا علي كل قتيل جريدة أو قصبة وذلك في مكان المعركة، ثم جمعناها وحصرناها فإذا الكفار تسعون ألفا وقتل في الجبال والطرقات ما لا يحصي وتفقد المسلمون من قتل منهم فإذا هم خمسمائة وثلاثون رجلا، وجمعت المسلمون الغنائم والأموال ثم قسمت وأخرج عمرو منها الخمس وكتب كتابا بالفتح وما جمعه من الخمس واستدعي بالأمير هاشم بن المرقال رضي الله عنه وندب معه ثلاثين رجلا من خيار الجند وأمره بالمسير إلي المدينة وأقام المسلمون بالمرج بعد الوقعة خمسة أيام حتى استراحوا ورجع من كان خلف المنهزمين، ثم اجتمعوا إلي عمرو واستأذنوه في المسير إلي الوجه القبلي فأذن لهم وودعهم ودعا لهم وقال يعز علي فراقكم ولو أن أمير المؤمنين لم يأمرني بالمسير ما فارقتكم، ثم رجع معه ثلاثة آلاف ومائة وعشرون وكان جملة من قتل ثمانمائة وثمانين ختم الله لهم بالشهادة وقيل ألف وقيل تسعمائة وأربعون علي اختلاف الرواة، والله أعلم أي ذلك كان.

(قال الراوي) ما أخذت في هذا الكتاب إلا علي قاعدة الصدق والمعونة من الله تعالي، فلما ملكت المسلمون البلاد وأذلت أهل الشرك والفساد وذلك ببركة الصحابة رضي الله عنهم، فهم الرجال الأبطال والسادة الأخيار والمهاجرون والأنصار وأصحاب محمد المختار الذين فتحوا بسيوفهم الأمصار وأذلوا الكفار وأرضوا العزيز الغفار وباعوا نفسهم لله الواحد القهار بجنات تجري من تحتها الأنهار.

(قال الراوي) لما رجع المنهزمون إلي الملوك والبطارقة أخبروهم بذلك وقع الرعب في قلوبهم وحاروا في نفسهم ولم يدروا ما يدبروا وما يصنعون. قال فصعب

علي بطريق أهناس وعلي صاحب البهنسا ما صنع ببطارقهما وعولوا علي الحصار وجمعـــوا الآلـــة وصـــاروا يخرجون ما يحتاجون إليه وتيقنوا أن لا بد للحرب من أرضـــهم ووطنوا أنفسهم، وكذلك بطارقة الصعيد وملوكه وضاقت نفوسهم مما حل بهم.

(قـــال الـــراوي) ووصل الكتاب إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففرح بـــذلك فـــرحا شـــديدا وقرأ الكتاب علي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الـــرحمن بـــن عوف والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ففرحوا بذلك فرحا شـــديد، ثم قسمت الغنائم علي أهل المدينة وقسم لنفسه كأحدهم رضي الله عنه وكتب جـــواب الكتاب ودفعه لهاشم، وقال له قل لعمرو يحث الصحابة ويحرضهم علي فتح الصعيد.

(قال الراوي) وأما عمرو بن العاص رضي الله عنه فإنه لم يرجع إلي مصر حتى قسم الغنائم بين الصحابة وفضل أصحاب الولاء وأهل السابقة ورجع إلي مصر بعد أن جهز العساكر إلي الصعيد.

(قـــال الراوي) ولما فارق عمرو بن العاص خالد بن الوليد والأمراء رضي الله عـــنهم استـــشار بعضهم بعضا أي مكان يقصدون؟ فاتفق رأيهم أن يسيروا ألف فارس طليعة وأمر عليهم قيس بن الحرث ومعه جماعة من أمرائهم. منهم رفاعة بن زهيـــر المحاربـــي والقعقاع بن عمرو التميمي وعقبة بن عامر الجهني وذو الكلاع الحميـــري رضـــي الله عنه وصاروا يسيرون في وسط البلاد وبقية العساكر قريبة مـــنهم، فمـــن أطاعهم طلب الأمان أمنوه وصالحوه ووضعوا عليه الجزية ومن أبي قاتلـــوه ومن أسلم تركوه، وسار خالد ببقية الجيش يريدون أهناس فإنها كانت أعظم مـــدائن الوجه القبلي وكانت حصينة آهلة بالخيل والآلة والعدة، ولما أحس بطريقها بمجيء الصحابة إليه جمع البطارقة، وقد انكسرت جنودهم وخمدت نيرانهم وكلمتهم بانهـــزام جيوشـــهم وشاورهم في أمرهم، وقال لهم خذوا أهبتكم وقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وإلا صرتم عبيدا للعرب يفعلون بكم ما يختارون، وإن شئتم صالحناكم حتى يعلم ما يكون من بطارقته، فأجابوه وقالوا لا نسلم البلاد حتى نغلب ونجمع أموالنا في

هــذه المدينة الحصينة ونقاتل، فإن غلبنا علي الحصار واتفق رأيهم علي ذلك، فكان الذي أجابهم إلي ذلك خرج نفسه وأمواله ومن لم يجبهم إلي ذلك أقام، وكذلك بطارقة البهنسا: منهم من انتقل إلي البهنسا بماله وأولاده، ومنهم من أقام بعض المدائن ممن عولوا علي الإقامة والحصار والقتال.

وســـار خالد بالجيش حتى قرب من أهناس وبين يديه الطلائع والأمراء وهم يــشنون الغارات علي السواحل والبلاد، فمن خرج إليهم وصالحهم عقد معهم صلحا صــالحوه ولهــم الميــرة والعلوفة ومن أبي دعوه إلي الإسلام، فإن أبي طلبوا منه الجــزية، فإن أبوا شنوا عليهم الغارة حتى وصلوا قريبا من أهناس وبلغ الخبر إلي عدو الله.

فقــال: لا بد من لقائهم وقتالهم حتى أنظر ما يكون من أمرهم، ثم خرج إلي ظاهر المدينة قريبا من السور ولم يبعد عنها، وكان للمدينة أربعة أبواب فأغلق ثلاثة وفــتح الباب الشرقي وأخرج الخيام والسرادقات وأكثر من العدة والزينة، وقال: إن دخلنا المدينة من غير قتال طمعت العرب في جانبنا، ثم فرق بطارقته وعرض جيشه فكانت عدتهم خمسين ألفا، وقال اثبتوا وقاتلوا عن حريمكم ولا تكونوا أول جند أخذوا وأقاموا يتأهبون للقتال وينتظرون قدوم الصحابة رضي الله عنهم.

(قــال الــراقدي) وأما خالد فلما قرب من أهناس استدعي بالزبير بن العوام وضــم إليه ألف فارس من الأمراء وغيرهم وأمره بالمسير، ثم استدعي بالفضل بن العــباس وضم إليه فارس وسار علي أثره، ثم استدعي بميسرة بن مسروق العبسي وضــم إليه ألف فارس وسار علي اثره، ثم استدعي بزياد بن أبي سفيان وضم إليه ألــف فــارس وسار علي أثره، ثم استدعي بمالك بن الأشتر النخعي وضم إليه ألف فارس وسار علي أثره وسار خالد ببقية الجيش.

قــال حدثــنا عــون بن سعيد، قال حدثنا هاشم بن نافع عن رافع بن مالك العلــوي. قــال كــنت فــي خيل الزبير بن العوام رضي الله عنه لما توسطنا البلاد وتعرضنا لأهلها وشننا الغارة علي السواد فوجدنا قطيعا من الغنم ومعها رعاة، فلما أحــسوا بنا تركوها ومضوا فسقناهم، ثم سرنا قليلا وإذا بنساء وصبيان، فلما رأونا

فــروا وكان معهم عشرون فارسا من العرب المتنصرة من جذام ومعهم بطريق من البطارقة عليه الزينة الفاخرة، فلما عاينونا فروا من بين أيدينا فأطلقنا الغارة عليهم، فلمــا كــان غير بعيد حتى أدركناهم وقبضنا عليهم وسألناهم فأجابوا بأنهم من قري شــتي وأنهم يريدون أهناس فعرضنا عليهم الإسلام فامتنعوا فأردنا قتلهم فمنعنا من ذلك الزبير رضي الله عنه وقال حتى يحضر الأمير خالد ويفعل ما يريد، قال وسرنا حتــى قربنا من أهناس ورأينا المضارب والخيام والسرادقات، فأعلن الزبير بالتهليل والتكبيــر وكبر المسلمون حتى ارتجت الأرض لتكبيرهم وخرجت الروم إلي ظاهر خــيامهم ينظرون إلينا وعدو الله مارنوس بن ميخائيل ينظر علينا والحجاب والنواب وأرباب الدولة من البطارقة حوله وعليهم أقبية الديباج وعلي رؤوسهم التيجان المكللة وبأيــديهم العمد المذهبة والسيوف وهم محدقون به عن يمينه وشماله. قال فلما أقبلنا علــيهم تــصايحوا ورطــنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم واستقلونا في أعينهم وهم يتحارســون حتــى لاح الفجــر، ثم أقبل المقداد رضي الله عنه بأصحابه وكبر هو والمسلمون ولما قرب من أصحابه هز الراية وأنشد يقول:

أنا الفارس المشهور في كل موطن	ونــاصر ديــن للنبي محمد
لــعلنا ننــال الفوز عند إلــهنا	فيافوز من أضحي نزيل المؤيد
ونــقتل عــباد الصليب جميعهم	بــأسمر خطي وعضب مهند

(قــال الراوي) ونزل بازاء الفضل، وتكلم الأمراء المتقدم ذكرهم، قال ولما رأونــا ظنوا أن ليس وراءنا أحد وقعدنا ذلك اليوم ولم نكلمهم ولم يكلمونا، فلما كان الــيوم الثاني عند طلوع الشمس إذا بالغبار قد ارتفع من خيول عادية وعليها فوارس حجازيــة، وكبــر المــسلمون ورفعوا راياتهم الإسلامية وأعلامهم المحمدية، فسمع أصــحاب رســول الله ﷺ الصياح فخرج الأمراء إلي لقائهم وإذا في أوائلهم خالد بن الولــيد رضي الله وإلي جانبه غانم بن عياض الأشعري وأبو ذر الغفاري، فلما رأت الروم ذلك من قريب دخل الرعب في قلوبهم ونزل أصحاب رسول الله ﷺ قريبا من أهــناس كــل مــنهم في مركزه وأقاموا ذلك اليوم فلما كان اليوم الثالث جمع خالد الأمراء وأصحاب الرايات واستشارهم فيمن يمضي إلي بطريق أهناس. فقال المقداد

أنا له، فقال له خالد: أنت له فخذ من شئت. فأخذ معه ضرار بن الأزور وميسرة بن مسروق العبسي: وقال لهم خالد: ادعوه إلي الإسلام، فإن أبي فالجزية، فإن أبي فقتال واحرصوا علي أنفسكم.

(قـــال الـــراوي) وســـاروا إلي القوم حتى قربوا من العسكر وهم يدوسون بخـــيولهم أطناب الخيام والسرادقات، فصاحت بهم الحجاب: من تكونون؟ فقالوا نحن رســـل فأعلموا البطريق بذلك فأمر بإحضارهم، فلما حضروا بين يديه صاحت بهم الحجـــاب والـــنواب أن قـــبلوا الأرض للملك، فلم يلتفتوا إليهم ولم ينزلوا علي باب ســـرادق الملـــك ووقفوا عل الباب فأذن لهم في الدخول وأمسكوا لجم خيولهم، فأراد الغلمان أن يمسكوها فامتنعوا من ذلك فأشار إليهم البطريق فتركوهم، ثم دخلوا عليه فـــإذا هـــو جـــالس علي السرير من الذهب مرصع بالدر والجوهر وحوله البطارقة جلوس، والحجاب والنواب وأرباب الدولة قيام وبأيديهم والسيوف والأعمدة والرماح، فلمـــا رآهم تغير لونه واندهش وأذن لهم بالجلوس فقالوا: لا نجلس علي هذا الفرش فأنـــه حـــرام عليـــنا، فأمر بالبسط الحرير فرفعت، ثم فرش أنطاعا من الصوف ثم أشاروا إليهم فقالوا لا نجلس حتى تنزل من سريرك.

قـــال: فـــرطنت الروم فأشار إليهم فسكتوا وأرادوا أن ينزعوا منهم سيوفهم فامتنعوا من ذلك، فتركهم وكلمهم الملك فأبوا حتى ينزل عن سريرهه، فنزل وكلمهم بلـــسان عربي وسألهم عن حالهم، فأجابوا أنهم لا يفارقونه حتى يسلم هو وقومه، أو يؤدوا الجزية أو القتال فامتنع عن ذلك وقال إذهبوا والموعد غدا للقتال، وخرجوا من عنده علي ذلك ورجعوا إلي خالد وأعلموا بذلك فتأهب الأمراء للحرب، فلما أصبح خالـــد صلي بأصحابه صلاة الصبح وبادروا للحرب والقتال وصاحوا النصر النصر يا خيل الله اركبي وللجنة اطلبي، فركب المسلمون خيولهم واصطفوا ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين وخالد في وسط الجيش، وميسرة بن مسروق العبسي، ومالك الأشتر النخعي في خمسمائة فارس من المهاجرين والأنصار.

(قال الراوي) فلم تكن غير ساعة حتى برزت الروم وأظهرت صلبانها.

قال حدثنا رافع بن مالك عن عباد بن مازن عن محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه.

قال: لما أقبلت رايات القوم عددناها فإذا هي خمسون صليبا تحت كل صليب ألــف فارس، فكان أول من افتتح الحرب بطريق عليه ديباجة حمراء، معصب عليها بعــصابة من جوهر، فبرز إليه فارس من خثعم يقال له زيد بن هلال فقتله، ثم طلب البــراز فبرز إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يمهله أن ضربه بالــسيف علي عاتقه الأيمن فخرج يلمع من عاتقه الأيسر فانجدل عدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار، وطلب البراز، فبرز إليه فارس من الروم فقتله، ثم آخر فقتله وطلب الميمنة وشوش صفوفهم وقتل أبطالهم، ثم عاد إلي القلب، ثم خرج مــن بعــده شرحبيل بن حسنة وفعل كفعله، ثم حمل من بعده الفضل بن العباس، ثم حمــل من بعده العباس بن مرداس، ثم من بعده أبو ذر الغفاري، ثم تبادر المسلمون بالحملـــة، فلمـــا رأي الـــروم ذلك أيقظوا أنفسهم ولم يزل القتال بينهم حتى توسطت الشمس في قبة الفلك.

(قـــال الـــراوي) فعندها حمل خالد بن الوليد وغاص في الميمنة فقلبها علي الميسرة وغاص في الميسرة فقلبها علي الميمنة، وقاتلت العرب قتالا شديدا حتى جاء اللــيل وحجــز بــين الفريقين، وبات المسلمون يتحارسون وتفقد المسلمون بعضهم بعــضا، فإذا قد قتل منهم اثنان وأربعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة، والأعيان منهم ربــيعة بــن عامــر الــداودي وزيد بن ربيعة المحاربي وغانم بن نوفل المحاربي وصــفوان بــن مــرة اليربوعي، والبقية من أخلاط الناس، وقتل من أعداء الله ألف وثلثمائة وأزيد ولما خلا عدو الله بأصحابه تذكروا ما وقع في الحرب وصعب عليهم مــا لقوه من العرب فأراد الملك الصلح فغلب البطارقة عليه وأعدوا للحرب والقتال، فلمـــا أصبح الصباح وبارق الفجر، صلي المسلمون صلاة الصبح، ثم اصطفوا علي ظهــور خــيولهم واصطفت الروم وبرزت البطارقة وأظهروا زينتهم وبرز بطريق عظــيم يقال له صاحب طنسا وعليه لامه حربة وطلب البراز فبرز إليه الفضل بن العــباس فتجاولا وتعاركا وتخالفا بضربتين فكان السابق بالضربة الفضل بن العباس

فضربه بالسيف علي رأسه فوصل إلي أضراسه فانجدل صريعا يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار وبئس القرار، وبرز بطريق ثان فقتله ولم يزل كذلك حتى قتل أربعة من خيارهم فحملت الروم حملة واحد وحمل المسلمون وحمل ضرار بن الأزور رضي الله عنه وأظهر شجاعته وحمل مذعور بن غانم الأشعري والفضل بن العباس ومحمد بن عقبة بن أبي معيط ومسلم وجعفر وعلي أبناء عقيل وعبد الله بن جعفر وسليمان بن خالد وعبد الرحمن ابن أبي بكر وتجاهرت الأمراء وعظم الخطب وكثر الطعن والضرب حتى صار النهار كالظلام وتراشقوا بالنبال واشتد القتال فما كنت تري إلا جوادا غائرا ودما فائرا واشتد الكرب وكثر الطعن والضرب وسال العرق واحمرت الحدق وجال خالد كالأسد وأرغي وأزبد، فعند ذلك رفع غانم بن عياض طرفه إلي السماء.

وقال: يا عظيم العظماء أنزل علينا نصرك كما أنزلته علينا في مواطن كثيرة وانصرنا علي القوم الكافرين فأمنت جماعة من الأمراء علي دعائه فما كان غير بعيد حتى رأيت الرجال الكفار يتساقطون لا ندري بماذا يقتلون، فلما رأي الروم ذلك فروا إلي الباب وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون والحجارة تأخذهم من أعلي السور وهم لا يلتفتون إلي ذلك ودخلوا إلي الأبواب ودخل اللعين وصال عليهم خالد وجماعة من الأمراء وكان المسلمون قريبين من اللعين فاقتتلوا عند الباب فقتلوا منهم نحوا من ثلاثة آلاف وخرج من الباب نحو ألف فارس ودخل الباقون وأغلقوا بابهم وطلعوا علي الأسوار واشتد القتال والحصار ورموا بالحجارة النبال حتى فرق الليل بينهم.

(قال الراوي) وأقاموا المسلمون علي حصار أهناس ثلاثة أشهر وفي كل يوم يناوشونهم بالقتال والأسوار رفيعة الأبواب منيعة وأصحاب رسول الله ﷺ كل يوم يشنون الغارات.

(قال الراوي) وأقام المسلمون علي حصار أهناس ثلاثة أشهر وقد قل عنهم المدد وضاقت أنفسهم وطمعت فيهم الصحابة، ثم إن خالدا استشار أصحابه ماذا يصنعون وقد أعياه فتح الباب، فقال له المرزبان رضي الله عنه وكان من مرازية

كسري وقد أسلم وخرج إلي الجهاد وحبس نفسه لله عز وجل، فقال المرزبان إننا كنا في بلاد الفرس إذا حاصرنا مدينة ولم نقدر علي فتحها أخذنا زيتا و كبريتا ووضعناه في صناديق من خشب، وجعلنا لها أعوادا تحملها رجال ورجال يذبون عنهم إلي أن يصلوا إلي الباب أو إلي قريب منه، ويجعلون في الصناديق نارا ويولون فتعلق النار في الأبواب ويذوب الحديد فتفتح الأبواب وتعلق النار في الحطب والخشب والحجارة فتهدمها، فقال خالد نفعلها إن شاء الله تعالي.

فلما أصبحوا فعلوا ذلك وأسرعوا في جمع ما ذكرنا ووضعوه في صناديق، وجعلوا في أطرافها أعوادا طوالا من أسفلها وحملتها الرجال وخرج خلفهم الفرسان يقاتلـون والمـرزبان أمامهم يعلمهم كيف يصنعون وهم مستترون بالدرق والحجف والحجـارة والنـبال تتـساقط عليهم من أعلي السور حتى وصلوا إلي أول باب من أبواب المدينة، وهو الباب الشرقي وهو أعظم أبوابها.

فلمـا قـربوا من الباب رفعوا الصناديق علي الباب وألقوا النار في الزيت والكبـريت ووضـعوها وانقلبوا فلم يكن أسرع من لحظة حتى علقت النار بحجارة الباب والأخشاب والحديد وثارت النار إلي أعلي السور حتى وصلت إلي البرج فسقط البـرج بمـن فيه من الروم وهلك منهم جماعة كثيرة وتبادرت المسلمون إلي الباب وملـئوا قرب الماء وأطفئوا تلك النار، ودخلوا من الباب وقصدوا قصر الملك وكان حصينا علي أعمدة من الحجارة المنحوتة وكانوا أغلقوا أبوابه به كما ذكرنا.

ولمـا رأي الملعون ذلك لم يطق أن يصبر وأمر بفتح الباب وصاح الأمان ومعـه جماعة من حشمه وخدمه وبطارقته فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فأمر خالد بـضرب أعناقهم، فمن أسلم تركوه ومن أبي قتلوه، ومن بقي علي دينه ضربوا عليه الجـزية وهدموا دورا وأماكن حتى صارت تلالا، وغنم المسلمون أموالا كثيرة من أواني الذهب والفضة والفرش الفاخرة ووضعوا فيها عبادة بن قيس قيما ومعه ثلثمائة من المسلمين وخرجوا بظاهر المدينة ولم يبق إلا من أسلم ومن وضعت عليه الجزية وعمروا بها مسجدا.

ولما فرغ خالد من ذلك جمع الغنائم، وأخرج خمسها وأرسله إلي عمرو بن العاص يرسله إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة وأرسل لعمرو بن العاص سهمه ولأصحابه المؤمنين المقيمين بمصر ونواحيها، وأقام خالد بعد ذلك بأهناس هو جماعته من الأمراء أربعين يوما، واستدعي خالد بعدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه وأضاف إليه ميمون بن مهران وضم إليه ألف فارس وأمرهم أن ينازلوا أول بلاد البطليموس لعنه الله وإذا وصل إلي قيس بن الحرث يأمره بالمسير إلي قريب البهنسا ويقاتل من يقاتله ويسالم من يسالمه ويصالح حتى يأتيه المدد، ثم أرسل في أثره غانم بن عياض الأشعري رضي الله عنه وضم إليه ألف فارس فيهم الفضل بن العباس والمسيب بن نجيبة الفزاري وأبو ذر الغفاري والمرزبان الفارسي وكذلك جعفر ومسلم وعلي وعبد الله بن المقداد وولد خالد سليمان ومحمد بن طلحة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص وشرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ وقال لهم خالد سيروا حتى تصلوا إلي مدينة البهنسا أنا في أثركم ما لم يحصل لي ولأصحابي مانع وادعوا القوم إلي الإسلام فإن أجابوكم فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ومن أبي فالجزية ومن أبي فالحرب والقتال ونازلوا المدائن وأقرنوا المواكب ولا تسيروا إلا يد واحدة وفرقوا الكتائب وكونوا قريبين بعضكم من بعض غير متباعدين.

فإذا وقعت كتيبة منكم بما لا طاقة لها به تبعث النفير وثبتوا هممكم وأخلصوا نياتكم وقووا عزائمكم، فإذا وصلتم إلي البهنسا التي هي دار ملكهم ومحل ولا يتهم فأرسلا إلي الملك وادعوه إلي الإسلام، فإن أطاع فاتركوه في ملكة وإن أبي فالجزية عن يد وهم صاغرون وإن أبي فالسيف حكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وبلغني أنها مدينة كثير أهلها وأنها كثيرة الخيل وحولها مدائن وبلاد وقرى ورساتيق، فمن سالمكم وصالحكم فصالحوه ومن قاتلكم فقاتلوه وعليكم بالحزم وإخلاص النية وصدق العزيمة، قال الله تعالي في كتابه المكنون **﴿يا أيها الذين أمنوا اصبوا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾**[١] ثم استدعي بالمغيرة بن شعبة رضي الله عنه وكان معه زياد الأكبر أو المغيرة جد زياد الذي هو بقرية ديروط

بقـــرب طنيدا، وسيأتي ذكر زياد بن المغيرة وأصحابه هناك إن شاء الله تعالي عند وقعة الدير، واستدعي بسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين رضي الله عنه وأبان بن عثمان بن عفان وجدد عليهم الوصية وودعهم.

(قـــال الراوي) وسار عدي بن حاتم الطائي وميمون حتى وصلا ميدوم وما حـــولها فوجدوا قيس بن الحرث قد صالح أهل تلك الأرض وعقد لهم صلحا وأقرهم بالجـــزية ما عدا جماعة وكذلك أهل برنشت بعد قتل بطريقهم وكذلك أهل تلك البلاد إلـــي دهـــشور ونـــادي في ذلك الإقليم بالأمان وجبوا له أموال عظيمة علي الصلح والجـــزية وعبـــر جماعـــة مـــن المسلمين إلي البر الشرقي، وهم رفاعة بن زهير المحاربـــي وعقبة بن عامر الجهني وذو الكلاع الحميري وألف من أصحاب رسول الله ﷺ وشـــنوا الغـــارات من العقبة التي هي قريب من قبلي حلوان علي تلك القرى والـــبلاد، فمـــن صـــالحهم صالحوه، ومن أبي قاتلوه حتى وصلوا إلي أطفيح ثم إلي البرنيل، وكان هناك بطريق يعرف بصول فخرج إليهم أهلها فصالحوهم علي الجزية وعبروا من هناك وسار عدي بن حاتم حتى اجتمع بقيس بن الحرث قريبا من القرية المعروفة بقمن ونزل ميمون هو وجماعته بالقرية المعروفة بالميمون.

فقال له قيس بن الحرث: لا تنزل هنا حتى يفتح لنا ما حولها من البلاد ويأتي خبـــر مـــن الأميـــر خالد بن الوليد ويأذن لنا بما يريد فأجاب إلي ذلك ونزل عدي بأصـــحابه بالقـــرية المعروفة ببني عدي ثم سار وترك ابنه حاتما واخوته وأحاطوا بالقـــرية وســـار قـــيس وأصـــحابه حتى وصلوا إلي القرية المعروفة بنوس والبلد المعـــروف بـــدلاص فخرج إليهم أهلها بعد قتل بطريقهم وصالحوهم وتوسطوا علي ساحل البحر حتى نزلوا ببا الكبرى وغانم بن عياض علي أثرهم وكان بها دير عظيم يعرف بدير أبي جرجا، وكان له عيد عظيم يجتمعون إليه من سائر البلاد فوافق قدوم الصحابة قريبا من عيدهم فجاءهم رجل من المعاهدين وأعلمهم بذلك فانتدب قيس بن الحـــرث رضـــي الله عنه ومعه جماعة من أصحابه خمسمائة فأمر عليهم رفاعة بن زهير المحاربي وأمرهم أن يشنوا الغارة علي الدير.

قـال وكـان جماعة من رؤساء الكورة من الروم والقبط والخيول المسومة حول الدير يحرسونهم وهم في أكلهم وشربهم وزينتهم وبيعهم وشرائهم فما أحسوا إلا والخـيل علـي رؤوسـهم فما قاتلوا إلا قليلا وانهزموا ونهب أصحابه جميع ما في السوق ومن أثاث وغيره وساقوا الغنائم وأحاطوا بالدير فقاتلوا من علي الدير فقطعوا الـسلاسل والأقفال، وتعلق جماعة من الصحابة علي الحيطان ودخلوا الدير وأخذوا مـنه أمتعة وأثاثا وأواني من ذهب وفضة، وأسروا مائة أسير حتى توسطوا البلاد، وكان بالقرب من البحر اليوسفي قرى كثيرة وبلدان وكان فيها مدينة تعرف بسحاق، وكان بها بطريق من عظماء بطارقة البطليموس.

فلمـا بلغـه قدوم الصحابة جمع جنوده إلي البلد المعروفة بنشابة، فلما بلغه قدوم الصحابة جمع الخيل والروم والفلاحين والنصارى ستة آلاف وخرج يكشف بهم أصـحاب رسول الله ﷺ وقيس بن الحرث خرج إليه أهل ببا الكبرى وما حولها من السواد وكذلك أهل هوربت وعقد لهم صلحا وساروا، فلما قربوا من القرية المعروفة الآن ببنـي صـالح، فبينما هم سائرون إذا بالغبار قد طلع وانكشف عن ستة صلبان تحت كل صليب ألف، فلما رآهم المسلمون لم يمهلوهم دون أن حملوا عليهم واقتتلوا قـتالا شـديدا وثـار الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار والتقي الجمعان واصطدم الفريقان، فلله در رفاعة بن زهير المحاربي وعقبة بن عامر الجهني وعمار بن ياسر العبسي وميسرة بن مسروق العبسي.

(قـال الـراوي) وقاتلت أصحاب رسول الله ﷺ قتالا شديدا وصبروا صبر الكـرام، وإن عـدو الله لاوي بـن أرمياء صاحب شيزا وكان فارسا شديدا وبطلا صـنديدا، فجـال وصال وقتل الرجال، فعندها برز إليه فارس من المسلمين يسمي سـنان بـن نوفل الدوسي فقتله، فخرج إليه عمار بن ياسر العبسي فتجاولا وتعاركا وتضاربا وتطاعنا ووقع بينهما ضربتان وكان السابق بالضربة عمار فطعنه بالرمح فـي صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فانجدل عدو الله يخور في دمه وعجل الله بـروحه إلي النار، فعندما غضب الروم لأجل قتل صاحبهم وحملوا علي عمار في

كبكــبة مــن الخيل فعقروا الجواد من تحته، وتكاثر عليه فقتلوه وقتل في المسلمين خمسة عشر رجلا. •

قال حدثنا سنان بن نوفل عن مالك عن غانم اليربوعي وكان في خيل رفاعة بن زهير المحاربي، قال نحن علي القتال وقد عظم النزال ووطنا أنفسنا علي الموت، ورفاعة يحرض الناس علي القتال وهو ينشد ويقول:

يامعشر الناس والسادات والهمم ويـــــا أهل الصفا يا معدن الكرم

فسددوا العزم لا تبغوا به فشلا ومكنوا الضرب في الهامات والقمم

وخلفوا القوم في البيداء مطرحة علي الثـــــري خمشا بالذل والنقم

(قال الواقدي) وجعل يحرضهم ويقول يا معشر السادات ابشروا فإن الروم لم تقــم لهــم قائمة أبدا، وأبشروا بالحور والولدان في غرفات الجنان، وأن الجنة تحت ظلال سيوفكم.

قال رفاعة: فبينما نحن في أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانقشعت وانكشف الغبار عن ألف فارس، عليهم الدروع الداودية وعلي رؤوسهم البيض العادية المجلية معتقلــين بالرماح الخطية، راكبين الخيول العربية، فتأملناهم فإذا هم سليمان بن خالد ابــن الوليد وعبد الله بن المقداد وعبد الله بن طلحة و أخوه محمد وزياد بن المغيرة والولــيد ومحمد بن عتبة ومحمد بن أبي هريرة و جماعة من الصحابة والأمراء و أبناؤهم رضي الله عنهم، وكان غانم بن عياض الأشعري جهزهم طليعة قدامه، فلما رأونا كبروا وكبرنا لتكبيرهم وخاضوا في أوساطنا وطلب كل واحد منهم بطريقا من البطارقة فقتله، فلما رأت الروم ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلي الفرار وتبعهم أصحاب رســول الله ﷺ يقــتلون وينهبون ويأسرون إلي بلدة سبزا وما حولها من السواد إلي سلقوس، فأسروا منهم نحو خمسمائة أسير وقتل منهم ثلاثة آلاف وهرب الباقون إلي القرى والبلاد، ولما قتل بطريق شنا خرج إليهم أهلها من النصارى والسوقة وعقدوا معهم صلحا واتفقوا علي أداء الجزية وكذا من حولهم من القرى، ونزل هناك عمر بــن الزبير وجماعة من المسلمين وسار قيس بن الحرث أمام القوم حتى نزل قريبا مــن طندا والبلد المعروف بإسنا، وكان بها طريق يسمي بولياص بن بطرس وكان

كافـرا لعيـنا فخرج إلي لقاء المسلمين هو وجماعته ومعه ميرة وعلوفة فكان ذلك مكـيدة منه وعقد مع المسلمين صلحا ووافقهم علي أداء الجزية عن بلده وعن إسنا وكانت تحت حكمه، وارتحل قيس بن الحرث ومن معه وتأخر زياد بن المغيرة ونزل بالقرية المعروفة بدهروط، فعهد مع أهلها صلحا، ونزل سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وجماعة قريبا من البلد، ومنهم من نزل عند القرية المعروفة بأطنية، وصار جماعة يدخلون البلد ليلا ثم يعودون خوفا من المكيدة ولا حذر من قدر الله عز وجل.

(قال الواقدي) وكان المتخلفون خمسمائة فارس، فجعلوا يسيرون علي جانب البحـر ويـشنون أي يغيـرون علي أهل السواد، فمن صالحهم صالحوه ومن أسلم تـركوه، وسـار قيس بن الحرث حتى نزل بالبلد المعروف الآن بالقيس وبه سميت وكـان فيها بطريق من بطارقة البطليموس وكان من بني عمه رجل اسمه شكور بن ميخائيل والله أعلم باسمه فدخل أهل السواد كلهم البلد وحاصروها حصارا شديدا نحو شهرين.

ثـم أعانهم الله تعالي وحرقوا بابا من أبوابها ففتحت ودخلوا إليها وكان ذلك بعـد وقعة جرت بينهم في مكان يعرف بكوم الأنصار، فهزموهم هناك وحاصروهم وفـتحوا المدينة وقتلوا البطريق ونهبوا الأموال وأخذوا جميع ما فيها بعد أن دعوهم إلـي الإسـلام فامتنعوا من ذلك، ثم شنوا الغارات علي ما حولها من البلدان والبلد المعروف بماطي، ثم إلي الكفور، فخرج إليهم بطريق كان ابن عم المقتول بدهشور لعـنة الله وأخـوه بطـرس وعقدا مع المسلمين عقدا علي الصلح وأعطوا الجزية، وسـارت العـرب إلي البلد المعروف بالدير وسملوط وما حولها من القرى، ونزل زهير وجماعة من العرب بالمكان الذي يعرف بزهرة.

و أمـا بقية السواد الذي حول البهنسا شرقا وغربا، فلما تحققوا مجيء العرب هربوا إلـي البهنـسا بأمـوالهم ونـسائهم وذراريهـم وتركوا البلاد جميعها خرابا، وكان البطليموس لعنه الله أرسل إليهم بطارقته فحملوهم إلي البهنسا واستعد الحصار وجمع عنده ما يحتاج عليه مدة الحصار.

(قـــال الـــواقدي) هذا ما جري لهؤلاء، وأما عدو الله بولياص صاحب طنبدا فإنـــه كاتب البطليموس يقول: إني ما صالحت العرب إلا مكيدة وإني أريد الغدر بهم فجهــز لي جيشا من البطارقة علي أن أظفر بجماعة من أبطال المسلمين ونأخذ بثأر من قتل منكم قريبا.

قال: وكان عدو الله كل يوم تأتيه الأخبار من العرب المتنصرة ومن غيرهم مـــن أهل البلاد و السواد بما جري للعرب وبأخبار من قتل من البطارقة وأخذ البلاد والأمـــوال، فحمـــل هما عظيما ولم يظهر ذلك لأحد من بطارقته، وإنما كان يطيب قلوبهم ويقول بلدنا حصينة وإن قاتلونا قاتلناهم وإن غلبونا دخلنا بلدنا، فلو جاءنا أهل الحجاز جميعهم ما وصلوا إلينا ولو أقاموا عشرين سنة، فلما بلغ البطليموس مكاتبة عـــدو الله بولياص فرح بذلك فرحا شديدا. قال واستدعي ببطريق من بطارقته يسمي روماس وضم إليه خمسة آلاف فارس من الروم والنصارى وغيرهم من أهل القرى وأمـــرهم أن يسيروا تحت ظلام الليل فلما جاء نصف الليل حتى وصلوا إلي طنبدا ودخلـــوا علي بولياص ففرح بذلك فرحا شديدا واستعدوا للهجمة علي المسلمين. قال وأصـــبح المسلمون وقد صلوا صلاة الصبح وإذا بالخيل قد أقبلت إليهم فنادوا: النفير هاجمـــونا وغدرونا، فركب المسلمون خيولهم وساروا إلي قريب الدير، وإذا بالروم مقبلين في عشرة آلاف فارس وكان أعداء الله قد كمنوا كمينا قريبا من قناطر كانت هناك ونهر يجري فيه الماء من النيل في أوانه عميق غربي الدير قريب من البلد.

(قـــال الرافدي) ولما رأي المسلمون لمعان الأسنة والبيض وخفقان الأعلام وبريق الصلبان الذهب والفضة تبادروا إلي خيولهم فركبوا وأعلنوا بالتهليل والتكبير والـــصلاة علـــي البـــشير النذير، وأقبلوا مسرعين نحوهم ولم يفزعوا من كثرتهم، وحرض بعضهم بعضا علي القتال، وكانوا قد سبقوا إلي شرذمة من المسلمين كانوا نـــزولا قريبا من الدير ووضعوا فيهم السيف وأحاطوا بهم وجالوا واتسع المجال إلي قريب من دهروط، فخرج سليمان بن خالد ابن الوليد وعبد الله بن المقداد وعامر بن عقبة بن عامر وشداد بن أوس وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، واشتد القتال، وعظـــم النـــزال، وعميت الأبصار، وقدحت حوافر الخيل الشرار، ولمعت الأسنة،

وقـــرعت الأعـــنة، ودهشت الأنظار، وحارت الأفكار، وأحاطوا بالمسلمين من كل جانـــب، فالله در سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد لقد قاتلا قتالا شديدا وأبلـــيا بلاء حسنا، ولله در زياد بن المغيرة لقد كان يقاتل تارة في الميمنة وتارة في الميـــسرة وتارة في القلب وأحاط بهم أعداء الله من كل جانب، وقد صار المسلمون بيـــنهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وصبروا لهم صبر الكرام وكان أكثر المـــسلمين قد أثخن بالجراح واشتد الكفار، هذا والمسلمون قد انتدبوا أبطالا وجعلوا خلـــف ظهورهم قاتلوهم قتالا عظيما، هذا وأعداء الله قد أحاطوا بهم وحجزوا بينهم وبـــين البلد، وقاتل سليمان وأصحابه قتالا شديدا ووطنوا أنفسهم علي الموت وشجع بعـــضهم بعـــضا وصـــار سليمان بن خالد يقول: الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والمـــوعد عـــند حوض النبي ﷺ وقاتل قتالا شديدا حتى أثخن بالجراح، وقتل من المـــسلمين نحـــو مائتين وعشرين قريبا من التل الذي غرب البلد المذكور، وما قتل الواحد منهم حتى قتل من أعداء الله خلقا كثيرا.

(قال الواقدي) ولما رأي المسلمون وسليمان بن خالد ما حل بأصحابه صار تارة يكر في الميسرة وتارة يكر في الميمنة، وأعانه بالحملة عبد الله بن المقداد وبقية الصحابة، وتقدم سليمان بن خالد وطعن بطريق إسنا طعنة صادقة فأرداه عن جواده وغاص في القلب.

قال حدثنا أوس بن شداد عن علقمة بن سنان عن زيد بن رافع قال: كنت في الخـــيل صـــحبة سليمان بن خالد وقد حجزنا المشركين وتقهقروا من بين أيدينا ولم نـــشعر أن لهـــم كمينا إذ خرج الكمين علينا وقاتلناهم قتال الموت وقتل منهم جماعة نحـــو ألفـــي فارس وقتل سليمان بن خالد من الصناديد والبطارقة من خيارهم نحو ثلاثـــين فارســـا وكذلك عبد الله بن المقداد، فأحاط بسليمان بن خالد رضي الله عنه كردوس نحو ألفي فارس وعقروا جواده من تحته، فضرب بالسيف فيهم حتى قطعت يده اليمني، فتناول السيف بيده اليسرى فضرب بها حتى قطعت، فأحاطوا به.

فلما تيقن بالقتل التفت وقال: يعز عليك يا خالد بن الوليد ما حل بولدك ولكن هـــذا هو رضا الله عز وجل، وكان قد طعن في صدره نحو عشرين طعنة حتى قل

حـيله وسقط إلي الأرض، ثم تنفس وقال: الساعة نلقي الأحبة، ولما رآه عبد الله بن المقداد علي ذلك المصرع صاح لا حياة بعدك يا أبا محمد والمتلقي في جنات عدن، ثم غاص يقاتل فأحاطوا به واشتبكت عليه الأسنة وضرب ضربات كثيرة في وجهة وهو يقطع الرماح ويمسح الدم عن وجهه حتى سقط به الجواد وصاح: واشوقاه إليك يـا مقـداد، ثم تبسم وقال مرحبا، ثم مات وأيقنا كلنا بالموت وأن القيامة هناك وإذا بغبـرة قـد لاحت وانكشفت عن رايات إسلامية وعصائب محمدية وفي أوائل القوم القعقاع بن عمرو التيمي والمسيب بن نجيبة الفزاري وسمرة بن جندب والفضل بن العباس وزياد بن أبي سفيان وبنو هاشم وبنو عبد المطلب وسادات الأوس والخزرج، وغـانم بـن عياض الأشعري ومن معه من الأمراء السادات، فلم يمهلوهم دون أن حملـوا عليهم حملة رجل واحد حتى أجلوهم وقتل البطريق بولياص لعنه الله ومعه بطـريق البطليموس، وانهزمت الروم واتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون حتى بلغت الهزيمة إلي البحر اليوسفي ورموهم في البحر وغرق منهم جماعة كثيرة وقتل منهم في المعركة نحو أربعة آلاف وأسروا نحو ألف ومائتي أسير وهرب منهم إلي البطليموس جماعة واختفوا إلي الليل ودخلوا لبطليموس وأعلموه بذلك، فضاقت عليه الدنيا وضاق صدره، وحار في أمره، واستعد للقاء المسلمين.

(قـال الـواقدي) هذا ما جري لهؤلاء، وأما أهل طنبدا وأهل إسنا وكانوا لم يخرجوا ولم يقاتلوا، فإنهم لما وردت عليهم الأخبار ومعهم البطارقة، سألوا بطريقهم القـتال وكان نصرانيا ولم يكن روميا وكان اسمه لوص وبه سميت البلد فأبي، فلما انهزم البطارقة وخرج أهل طنبدا وأهل إسنا من السوقة والرعية وأولادهم وغيرهم وبكـوا في وجوههم وقالوا: نحن قوم رعية وكنا مغلوبين علي أمرنا فإنا أهل ذمتكم ورعيـتكم. قـال بـشرط أن تدلونا علي ماهربوا إليكم فأجابوهم إلي ذلك وصاروا يأخـذون المسلمين ويدخلون الدور والمساكن ويقبضون علي الروم ويسلمونهم إلي المسلمين، وكان النصراني يقبض علي الرومي ويأتي به إلي المسلمين، حتى قبضوا مـن طنـبدا وإسنا نحو من ألف وخمسمائة رجل من المطامير والأبيار التي كانوا يحـسبون فـيها الأسـاري من المسلمين وغيرهم ولما اجتمعت الأساري من الروم

والنصارى أمر غانم بن عياض بضرب رقابهم علي تل هناك يعرف بالكوم ورجعت المسلمون إلي مكان المعركة، فلما عاينوا القتلى ورأوا سليمان بن خالد وعبد الله بن المقـداد وعبـيد بن الداري، بكوا عليهم وعلي من قتل معهم من الأمراء رضي الله عنهم وحزنوا عليهم حزنا شديدا، وأنشد عمار بن ياسر ينعي سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد ومن معهما بقوله:

يا عين أذري الدمع منك الصبيب	ثم اندبي يا عين فقد الحبيـب
وانعـــي لمقتول غدا في الفلا	مجندلا وسط الفيافي غريـب
وابكي ســـليمان ولا تغفلي	فـــأمره والله أمـر عجيـب
قـــد كان لا يـفكر في العدا	إن سل من غمد سيف قضيـب
وتـــحذر الأعداء من بأسه	لـــو أنهم أعداد رمل الكثيـب
فـــيا حمام الأيك نوحي إذا	علي فتي قد كان غصبا رطيـب
وأعـلمي بـــما جري خالــدا	لـــعله يبكي بـــدمع صبيـب
وأخبري المـقداد مـــن بعـده	بـأن عبد الله أضحي ســليب
بل واندبي الأخيار من بـعدهـم	وكـــل قـــدم للمعالي مصيب
لا يـلتقي البطليموس خيرا ولا	أجنـــاد أبـــناء أهل الصليب
قـــد كـمنوا جيشا لنا عامدا	يوم الوغي من كل كـلب مريب
وحـــق من أعطي لنا نصره	في كل واد ثم فتحـــا قريب
لـنأخذن الـــثأر من جمعهم	جـــهرا ونطفي من فؤاد لهيب

(قـال الـواقدي) وإن غانما رضي الله عنه جمع الشهداء ودفنهم في ثيابهم ودروعهم. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول "يحشر الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يوم القيامة وجراحاتهم تقطر دماء اللون لون الدم، والريح ريح المسك".

(قال الواقدي) وأقام غانم رضي الله عنه بعد أن دفن الشهداء قريبا من التل والأمراء يشنون الغارات علي السواحل وعدي بن جابر بن عبد الله الأنصاري وأبو أيوب والمسيب بن نجيبة الفزاري في ألف فارس، فأغاروا علي أهل شرونة، فخرج إلـيهم بطـريق يعرف بصندراس الجاهل وبطريق أهريست في خمسة آلاف فارس

واقتتلوا قتالا شديدا عند سفح الجبل فبلغ الخبر غانم بن عياض الأشعري فأرسل إليهم كتيـبة أخري صحبة ابن المنذر والفضل بن العباس والمرزبان في ألف فارس، فلما رأي الروم ذلك وقع الرعب في قلوبهم وكان بينهم حروب عظيمة.

ثم إن الفضل بن العباس قصد البطريق الجاهل وضربه ضربه هاشمية علي رأسـه فقطـع الخوذة والبيضة والرفادة، إلي أن سمع خشخشة السيف في أضراسه فكبر وكبرت المسلمون لتكبيرة فسقط عدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي الـنار وبئس القرار وكان الفضل بن العباس فارسا شديدا وبطلا صنديدا، فغاص في وسـط المشركين وفتك فيهم، والمرزبان حمل علي بطريق شرونة فقتله، وحمل ابن المنذر علي بطريق أهريت فقتله، فلما رأي الروم ذلك ولو الأدبار وركنوا إلي الفرار وتبعـتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون إلي المكان المعروف بالدير وأهريت وغرق منهم خلق كثير وقتل منهم ألف وخمسمائة فارس، وأسر منهم ألف وخمسمائة وتحـصن مـنهم جماعـة من الروم والنصاري في مدينة الجاهل، وكانت حصينة فحاصـرها المـسلمون سبعة أيام وحرقوا الأبواب، وهدموا الجدران، وأخرجوا من البـيوت، وأخرجوا تلك المدينة إلي يومنا وخرج إلي المسلمين نصارى من شرونه وأهريت وعقدوا مع المسلمين صلحا، وأعطوا الجزية، وأنزلوا مرة الكلبي في مائتين مـن أصـحابه وغيرهم وابن عمرو بن العاص في المكان المعروف ببناء خالد في مائتي فارس، وعبر المسلمون البحر ونزل عامر بالعرب في مائتي فارس قريبا من طنبدا وإسنا وببا القرية، وارتحل غانم بن عياض رضي الله عنه ببقية الجيش، ولما تكاملـت المـسلمون أرسل بين يديه المسيب بن نجيبة الفزاري والعباس بن مرداس السلمي والفضل بن العباس الهاشمي وعامر بن عقبة الجهني وزياد بن أبي سفيان بن الحـرث في ألف وخمسمائة فارس فساروا إلي مكان يعرف باتجرنوس، وكان هناك قلعـة ومرج للملك البطليموس وكان في زمن الربيع ينزل هناك بالخيام والمضارب حـول القلعـة وتجـتمع عنده البطارقة يقيم أشهرا ثم ينزل علي الإقليم ثم يعود إلي البهنسا.

(قـال الـواقدي) وأرسـل لوص إلي البطليموس يطلب منه جيشا بصحبته بطريق من بطارقته، فأرسل إليه بطريقا كافرا لعينا اسمه شلقم وبه سميت البلد التي هي قريب من البهنسا، وكان الجيش عشرة آلاف فارس، والله أعلم.

قال حدثنا مسلم بن سالم اليربوعي عن شداد بن مازن عن طارق بن هلال: أنه كان في خيل العباس بن مرداس السلمي.

قـال: بينما نحن نسير إذ رأينا غبرة وعشرة صلبان من الذهب الأحمر كل صليب يلمع كأنه كوكب، فتأهبنا للحملة وتأهبوا لنا، فلم يمهلونا دون أن حملوا علينا وحملـنا عليهم وأحاطوا بنا وقاتلت الروم قتالا شديدا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفـرهم، وصبرنا لهم صبر الكرام وقاتلنا قتال الموت، فلم تكن إلا ساعة وقد قوى الحرب والقتال حتى أشرف علينا الأمير غانم بن عياض الأشعري مع بقية الجيش، فقوي فلبينا وكبرنا فأجابونا بالتهليل والتكبير، فتقدم الفضل بن العباس إلي البطريق شـلقم وكان فارسا شديدا وعليه ديباجة مفصصة بالذهب وفي وسطه منطقة بالذهب مرصـعة بالجواهر، وقد عصب رأسه بعصابة من الجواهر وبيده عمود من الذهب طوله ثلاثة أشبار وأزيد، وهو تارة يضرب بالسيف وتارة يضرب بالعمود، فلما رآه الفضل ظن أنه يريده، فحمل عليه الفضل وهو ينشد ويقول:

يـا أيها الكلب اللعين الطاغيا ... ومـن أتي لجيشنا معاديا

أبـشر لقد وافاك ليث ضاربا ... بـحد سيف في عداه ماضيا

كـان له الرب العظيم واقيا ... من كل كلب إذ يكون طاغيا

قال: فلم يفهم ما يقول الفضل وحمل عليه وتعاركا وتجاولا وضرب الفضل رضـي الله عـنه فحـاد عنها وعطف عليه وانتزع العمود من يده وضربه ضربة هاشـمية قرشية أبان بها رأسه عن بدنه ونظر إليه فلم يسقط فعاد عليه وهو جثة بلا رأس فـتلقاه فارس من المسلمين اسمه زهير فوجده مكلبا بكلاليب في سرجه فنزع الكلاليب فسقط عدو الله كالطود بعد أن تضمخ تاجه ومنطقته دما، فقال له الفضل إن السلب لي فخذه فقد وهبتك إياه، فقال لا أعدمنا الله مكارم يا بني هاشم وعطف علي لـوص فقتله وقتل كل أمير بطريقا غيره وحملت المسلمون حملة رجل واحد فبددوا

شملهم فولوا منهزمين بين أيديهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون إلي أن وصـــلوا إلي البحر اليوسفي والقوهم في مكان قريب من شاقولة فسميت القرية بذلك وتحصنت جماعة بقلعة المرج فأحاط بها المسلمون وحرقوا الأبواب وهدموا الجدران واســـتخرجوا ما هناك وقتلوا من المسلمين ثمانية وأربعون رجلا، من أعيانهم سيف الأنـــصاري رضي الله عنهم أجمعين، ودفن هو وأصحابه بمكان الوقعة، وكان زياد بـــن المغيـــرة وجماعـــته نـــزولا في أماكنهم قزيبا من طنبدا كما ذكرنا حول البلد المعـــروف بدهروط، وكان زياد صديقا للأمير سليمان بن خالد بن الوليد فكتب كتابا للأمير خالد بن الوليد يعزيه في ولده سليمان ويقول:

يـــا خـــالد إن هـــذا الدهر فجعنا	في سيد كان يوم الحرب مقدامـــا
مجندل الفرس في الهيجا إذا اجتمعت	وللصناديد يوم الحرب خصامـــا
لا يـــملك الضد من أبطالنا أمـــلا	إن حاز ساعده القصاص صمصاما
يـــا طول ما هزم الأعداء بصارمـــه	أنـــالهم مـــنه تنكيســـا وإرغاما
كأنه الليث وسط الغـــاب إذ وردت	له العدا وعلي الأشبال قـــد حامي
يا عين جودي بفيض الدمع منك دما	بل واندبي فارســـا قد كان ضرغاما
والســـيد الفرد عبد الله قد حكمت	بـــه المنايـــا وحكم الله قد داما
نجم الفتي العلم المقداد خـــير فتي	قـــد كان في ملتقي الأعداء هجاما

(قال الواقدي) فلما وصل الكتاب إلي خالد بن الوليد كان قريبا من الدير ببقية الجـــيش وهو ينفذ السرايا وأهل البلاد يأتونه بما صالحوه عليه من المال وغيره وقد جهز عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع الفهـــري والزبيـــر رضـــي الله عـــنه بألف فارس إلي الفيوم، وسيأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالي، فلما ورد الكتاب علي خالد سقط إلي الأرض وخر مغشيا علـــيه، ثم أفاق واسترجع، وقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿إنا لله وإنا إلـــيه راجعون﴾[1] ثم قال: اللهم إني احتسبت أجرا ولا تحرمني الثواب برحمتك يا أرحـــم الـــراحمين، ثـــم قال والله لآخذن فيه ألف سيد من ساداتهم ولأقطعن ساداتهم

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٦.

وفرســانهم وإنني أرجو أن آخذ بثأره إن شاء الله تعالي ولأقتلن البطليموس شر قتلة لعلــي أشــفي بــذلك غليل صدري وحرارة كبدي وليكونن علي يدي خراب دياره وانهــزام جيوشه وزوال ملكه، وهطلت مدامعه علي وجنته أحر من الجمر، ثم جعل يسترجع ويقول:

جري مدمعي فوق المحاجر منهمل	وحــر فؤادي من جوي البين يشتغـل
وهــام فؤادي حين أخبرت نعيه	فــليت بشير البين لا كان قد وصـل
لقد ذوب الأحشاء وأجري مدامعي	صبيبــا وعن نار الفؤاد فلا تسـل
ســأبكي عليه كلما أقبل المساء	ومــا ابتسم الصبح المنير وما استهـل
وكــان كريم العم والخال سيدا	إذا قام سوق الحرب لا يعرف الوجـل
أحــاطت به خيل اللئام باسرهم	وقــد مــكنوا منه المهند والأسـل
وعيشك تلقاهم صراعا علي الثري	عــليهم يسوق الوحش والطير محتفل
فــوا أسفا لو أنني كنت حاضرا	بأبيض ماضي الحد في الحرب مكتمـل
وحــق الذي حجت قريش لبيته	وأرســل طه المصطفي غايــة الأمل
لأقتــل منهم في الوغي ألف سيد	إذا سلـــم الرحمن واتســع الأجل

(قــال الــواقدي) وأقبلت الأمراء يعزون خالدا ومدامعهم تفيض من عيونهم ويقولــون أعظم الله لك أجرا، وأعقبك عليه صبرا، وجعله لك غدا في المعاد ذخرا، والله لقد عدمنا القوى، وقد أبيد القلب من حشاشتنا واكتوي، ونحن لقتله ذاهلون ﴿إنــا لله وإنــا إليه راجعون﴾[1] وكذلك يعزون المقداد في ولده عبد الله وبلغ الخبر عمــرو بن العاص بمصر وهو مقيم بها فكتب لهما كتابا بالتعزية وبلغ الخبر المدينة لعمــر بن الخطاب فاسترجع هو وبقية الصحابة مثل علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله، ومن كان حاضرا من الصحابة بالمدينة الطيبة رضي الله عــنهم وكتبوا إلي خالد والمقداد كتابا يعزونهما فلما وصل الكتاب إلي خالد والمقداد اطمأنا لما عليهما من الصبر وما لهما من الأجر والثواب.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

(قال الواقدي) هذا ما جري لهؤلاء، وأما البطليموس لعنه الله فإنه لما تحقق مجيء العرب إلي مدينة البهنسا فتح خزائن الأموال وفرق المال والسلاح والعدة من الملبوس والدروع وغير ذلك وفرق علي البطارقة وعلي غيرهم من الجند، وكان هناك بيت مقفل كما ذكرنا فيه صفة العرب وأسماؤهم فأمر بفتحه وهو يظن أن فيه مالا مدخرا فمنعه القسوس والرهبان من ذلك فأبي ففتحه فلم يجد فيه إلا صفة العرب وأسماءهم كما ذكرنا أول الكتاب فنظر لذلك ودخل الكنيسة وجلس علي سريره وجمع ما حوله البطارقة فاستشارهم في امره فقام شيخ كبير راهب وكان مطاعا عنده مسموع الكلام كبير السن، وكان عمره مائة وعشرين سنة فقام وعليه جبة سوداء وعلي رأسه قلنسوة وفي يده عكازة من الأبنوس ملبسة بالعاج والذهب فقرب من الهيكل وتكلم بكلام لا يفهم.

ثم قال بعد ذلك: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد كانت دولتكم قائمة وكلمتكم مسموعة ما دمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعدلون في الرعية وتأخذون للمظلوم من الظالم وتنصفون الضعيف وتواسون الفقير ولا تمدون أيديكم إلي شيء من أموال الناس وتهابون الزنا، وكانت الدولة لكم وقلوب الرعية منجذبة إليكم وداعية لكم وكان الملك فيكم ولما لم تأمروا بالمعروف ولم تنتهوا عن المنكر وظلمتم الرعية وجرتم في الأحكام وحكمتم بغير الحق ولا تأخذون للضعيف حقه من القوى ومددتم أيديكم بالدعاء عليكم ودعاء المظلوم مستجاب وكثرة الظلم خراب فيوشك أن تنزع هذه النعمة من أيديكم وتعود إلي غيركم بكثرة ذنوبكم وشؤم معاصيكم وبدعاء المظلومين عليكم، فلأجل ذلك سلطت عليكم العرب فلمكوا بلادكم وقتلوا رجالكم ونهبوا أموالكم وسكنوا منازلكم واستولوا علي معاقلكم فتيقظوا من غفلتكم وذبوا عن حريمكم وأموالكم ولا تمكنوا العرب من جانبكم وهذه مقالتي لكم جميعا، فلما سمع البطليموس لعنه الله كلام القس وما تكلم به التفت إلي بطارقته وجماعته ونوابه، وقال هل سمعتم ما قال أبوكم؟

قالوا: سمعنا. قال: فما عندكم من الرأي؟ قالوا نحن معك وبين يديك ونقاتل العرب ولا نطمعهم فينا كما طمعوا في غيرنا وإن غلبونا استعددنا للحصار وعندنا

مـــن الميرة والعلوفة ما يكفينا عشر سنين وأزيد وبلدنا حصين ولا نسلم أنفسنا وإلا يكـــون عليـــنا عارا عند الملوك قال فشكرهم البطليموس علي ذلك ووثب قس آخر، وكـــان يناظر ذلك القس في المعرفة واستخرج كتابا معلقا كان عنده في صندوق من الأبـــنوس مقفل بأقفال من الفولاذ وقال يا أهل دين النصرانية والمعمودية اسمعوا ما نعته لكم العلماء والكهان والحكماء إن يبعث نبي آخر الزمن يسمي محمد بن عبد الله مـــن بني عدنان يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه يبعثه الله نبيا إلي جميع البشر، مولده بمكة، ودار هجرته طيبة، ثم يقيم أعواما ويتوفاه الله عز وجل، ثم يتولي الأمر بعـــده رجل يسمي أبا بكر وتزداد العرب به فخرا ويجهز العساكر إلي الشام، ثم لم يلبث إلا أياما قلائل ويتوفاه الله تعالي و يتولى الأمر من بعده الرجل الأصلع الأحور المـــسمي بعمـــر وهو صاحب الفتوح ومصبح الأعداء بأشأم صبوح تفتح علي يدية الأمصار ويبعث سراياه إلي سائر الأقطار، وأنا نجد في الكتب القديمة أن هذه المدينة تفتح علي يد رجل أسمر وشجاع غضنفر فارس شديد وبطل صنديد يسمي بخالد بن الوليد، فإن سمعتم قولي وقبلتم فاعقدوا مع العرب صلحا فإن الدولة لهم ودينهم الحق، ولو قاتلهم أهل المشرق والمغرب غلبوهم ببركة الله وببركة نبيهم محمد.

قـــال: فلمـــا سمع البطارقة كلامه غضبوا غضبا شديدا وأرادوا قتله فمنعهم البطلـــيموس مـــن ذلك وقال له كأنك خفت من سيوف العرب، وأنا أعلم أن الرهبان والقـــسوس لا قلـــب لهـــم لأنهم ليس لهم أكل إلا العدس والزيت والليمون والأشياء الـــرديئة ولا يعـــرفون اللحم فلأجل ذلك ضعفت قلوبهم فلولا مقامك من قديم الزمان ورؤيتك للملوك القدماء لبطشت بك، ولئن عدت إلي مقالتك هذه لأقتلنك شر قتلة قال فـــسكت القـــس الراهب وخرج البطليموس من وقته وساعته وجلس في قصره ذي الأعمدة، ثم استدعي ببطارقته وخلع عليهم ورفع لهم الأعلام والصلبان وعرض عليه جيـــشه فإذا هم ثمانون ألفا غير السوقة المشاة فسر بذلك سرورا عظيما، ثم استدعي ببطـــريق مـــن بطارقـــته يدعي قابيل، وكان لا يقطع أمرا دونه فخلع عليه ودفع له ثمانـــين ألفا وأمره بملاقاة العرب، ثم استشار خواص مملكته في الإقامة في البلد أو الخروج إلي ظاهرها، فقال له ذوو الرأي من بطارقته:

أيهـــا الملك إنك إذا أقمت في البلد استضعفوا رأينا وأمرنا، وإذا كنت بجانب المديـــنة لا تجـــد العـــرب أن تصل إلينا ونجعل البلد خلف ظهرنا ونقاتل من خارج الأبـــواب ويساعدنا من فوق الأبراج، فإذا عظم الأمر فلا تدخل المدينة إلا من أمر عظيم فاستصوب رأيهم، ثم أنه أمر الفراشين أن يخرجوا والسرادقات والقباب بظاهر المديـــنة وأخـــرجوا له سرادقا عظيما سعته سبعون ذراعا وارتفاعه مثل ذلك علي أعمـــدة مـــن الخـــشب المـــصفح بالذهب والفضة وهو من الحرير الملون: الأزرق والأحمـــر والأخـــضر والأصفر والأسود ومقضب بقضبان الذهب والفضة مرصع باللؤلـــؤ وفـــيه تـــصاوير من داخله ومن خارجه من جميع أجناس الطير الوحوش والكـــواكب وفـــرش من الفرش وبسط الحرير الملون ووضع فيه المساند والوسائد والأنطاع وأطناب السرادقات حرير ملون بأوتاد من عاج وأبنوس في حلق من ذهب وفـــضة، وعليه فرش حرير ووسائد ومساند ونمارق وحوله ثمانون كرسيا مصفحة بالخـــشب الأبـــنوس يجلس عليها أرباب الدولة وأصحاب الصولة وضرب حوله من الخيام والسرادقات مالا يوصف.

(قـــال الراوي) حدثنا جماعة من الصحابة ممن شهد الفتح وعاين السرادقات أنـــه لمـــا هرب الملعون ودخل المدينة وكان السرادق منصوبا مقابل الباب البحري المعروف بباب قندوس أمر بطريقا من بطارقته اسمه سمعان أن ينصب سرادقه الذي وهبه له عند باب توما وهو الباب القلبي وأمر بطريقا اصطافين أن ينزل في الجانب الشرقي قريبا من القناطر علي ساباط معقود علي أعمدة من الحجارة فأمره أن ينزل ومعه عشرة آلاف فارس حول القلعة.

قـــال هبار بن أبي سفيان؛ أو سلمة بن هاشم المخزومي ما نزلنا علي مدينة من مدائن الشام ولا رأينا أكثر عددا ولا أكثر زينة من مدينة البهنسا ولا أقوي قلوبا منهم وأكثروا من الصلبان ونصبوا السرادقات والمنجنيقات علي الأسوار جلود الفيلة المصفحة بصفائح الفولاذ ورتبوا الرماة والمجانيق والسهام وغير ذلك.

(قـــال الراوي) هذا ما جري لهؤلاء، وأما الأمير عياض بن غانم الأشعري رضي الله عنه، فإنه لما قرب من البهنسا استشار أصحابه مثل أبي ذر الغفاري وأبي

هريـرة الدوسـي ومعاذ بن جبل وسلمة بن هاشم المخزومي ومالك الأشتر النخعي وذي الكلاع الحميري رضي الله عنه ومعهم ألفان من أصحابهم وأمرهم بالنزول في الجهـة الـشرقية وقـال لهم إن قاتلوكم قاتلوهم ونازلوا القلعة حتى تأخذوها، وعبر الأميـر عـياض من الجهة البحرية ومعه أصحاب الرايات والأمراء والطليعة من هؤلاء السادات وهم الفضل بن العباس وأخوه عبيد الله ابن العباس وشقران وصهيب ومـسلم وجعفـر وعلي أولاد عقيل بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبي سـفيان وتتابعت خلفهم السادات وأصحاب المروءات مثل نعيم بن هاشم ابن العاص وهـبار بن أبي سفيان وعبد الله بن عمرو الدوسي وسعيد بن زبير الدوسي وحسان ابـن نصر الطائي ومعمر بن خويلدة السبكي وسنان بن أوس الأنصاري ومخلد بن عون الكندي وابن زيد الخيل ومثل هؤلاء السادات أصحاب الرايات رضي الله عنهم وتـتابعت القبائل يتلو بعضها بعضا وعبروا إلي الجانب الغربي، فبينما هم سائرون وإذا بعدو الله قابيل قد أقبل بالبطارقة المتقدم ذكرها.

فلما التقي الجمعان عند سفح الجبل تحت المغارة أشار إلي أصحابه فأمسكوا عن المسير وتقدم إلي رابية عالية وإلي جانبه رجل من العرب المتنصرة وأمره بأن يـنادي برفيع صوته قربوا إلي البطريق رجلا منكم ذا خبرة يكلمه فوثب إليه جرير الحميـري وأتي إلي عياض وقال أيها الأمير أتأذن لي أن أكلمه. قال نعم إن طلبوا الصلح ورفعوا القتال صالحناهم حتى يحضر الأمير خالد بن الوليد ويفعل أمره، وإن أرادوا القتال قاتلناهم واستعنا بالله تعالي عليهم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(قـال الراوي) فعندها سار حتى وقف بازاء البطريق وقال له سل حاجتك، فقال له أأنت أمير القوم.

قـال: لا ولكني متكلم عن الأمير. فقال له لم تركتم بلاد الشام والنعم العظام وأتيتم إلي هذه البلاد؟ وكنتم في بلاد الحجاز تقاسون جوعا وعريا فذقتم فواكه الشام وثمار الحجاز وخيرات اليمن فلم يكفكم ذلك حتى أتيتم إلي مصر وقهرتم القبط وأتيتم إلـي بلاد الفرس وقهرتم ملوكها ولم تكتفوا حتى أتيتم إلينا وهجمتم علينا في بلادنا وقتلـتم أبطالنا ونهبتم أموالنا ونحن نتغافل عنكم ونهمل أمركم حتى غلظت شوكتكم

وقصدتم مدينتنا التي هي دار ملكنا ومحل ولايتنا، ولقد طلبها من قبلكم من الفراعنة والجبابرة والقبط والقياصرة والأكاسرة والجرامقة ورجعوا خائبين وأنتم هجمتم علينا وقتلتم رجالنا، فقولوا لنا ما الذي تريدون منا؟ فإن كنتم تزيدون مالا وترجعون عنا: قمـت أنا عن الملك بذلك وترحلون عنا وتردون لنا ما ملكتم من بلادنا وأن الملك لا يخالف لي أمرا فأخبروني ما الذي تريدون وما الذي تطلبون؟

فقـال له جرير: أفرغت من كلامك؟ فقال له نعم، قال له جرير خذ جوابك. أما قولك كنا في ضيق حال فهو كما ذكرت، ولكن أنعم الله علينا بالإسلام وهو أول نعمـة ثـم أمرنا بالجهاد، وأن الله تعالي أباح لنا أموال المشركين ماداموا محاربين، وأمـرنا أن نجاهد حتى تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، أو تسلموا، أو تقاتلوا حتـى يحكم الله وهو خير الحاكمين – وأما قولك المال فليس هو غرضنا ولا متاع الدنيا شهواتنا وأن بلادكم عن قريب تكون لنا وأموالكم غنيمة لنا نتقاسمها.

(قال الواقدي) فلما سمع البطريق الكلام غضب غضبا شديدا، وقال أنا كفء لكم دون الملك، ثم أمر أصحابه بالحملة علي جرير.

قـال: فما لويت عنان جوادي إلا والخيل قد ركبتني، فعندما توثب المسلمون واقتـتلوا قتالا شديدا وتبادرت الرجال وزمجرت الأبطال وزحفت الأفيال وتراشقوا بالنـبال وتـضاربوا بالنـصال وتطاعنوا بالسمر والتقي الجمعان واصطدم الفريقان واشـتد النـزال وكثرت الأهوال وتقاتلت الفرسان وولي الجبان. فالله در المغيرة بن شعبة وعون بن ساعدة وعبادة بن تميم والفضل بن العباس رضي الله عنه: لقد قاتلوا قـتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ولم يزل القتال يشتد من ارتفاع الشمس إلي الغروب، فعـندما وثب عبد الله بن جعفر إلي قابيل وضربه ضربة فحاد عنها عدو الله وولي هاربـا وحمـته جماعة نحو ثلثمائة فارس ولم يزل الفريقان في قتال ونزال إلي أن غابـت الشمس وافترق الجمعان، وقد قتل من المسلمين نحو خمسون رجلا ختم الله لهم بالشهادة وقتل من الروم نحو ألفي فارس.

قال: واجتمعت الروم حول قابيل حين ولي هاربا إلي أن وصل إلي البطليموس، فلما رآهـم وبخهـم، قـال لهم بأي وجه تفرون من العرب ولم تصبروا لهم وقد فشلتم وجزعتم.

قـال لـه قابيل أيها الملك ليس الخبر كالعيان، وهؤلاء ليسوا بإنس وإنما هم جن في القتال، ولولا الأجل حصين ما عدت إليك، فغضب الملك وقال اسكت قد تمكن رعب العـرب مـن قلبك وستنظر ما يكون من أمرهم، ثم بات في قلق شديد حتى أصبح الصبح ولم يأمر قومه بالركوب وقال امهلوا حتى أنظر ما يكون من أمرهم.

(قــال الــراوي) ولما أصبح المسلمون صلوا صلاة الصبح ثم تبادروا إلي خيولهم فركبوها فلم يجدوا لأعداء الله خبرا ولا أثرا وتيقنوا أنهم انهزموا ومضوا إلي مدينــتهم، فسارت المسلمون إلي أن قربوا من البهنسا فلاحت لهم المضارب والخيام والسرادقات والأعلام.

(قال الراوي) حدثنا قيس بن منهال عن عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل. قال لما أشرفنا علي مدينة البهنسا ورأينا تلك المضارب. قال عياض رضي الله عنه: اللهــم اخــذلهم وانصرنا عليهم: اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا واخــزهم **﴿إنك علي كل شيء قدير﴾**[3] وأمن المسلمون علي دعائه. قال فلما أقبلنا علــي مدينة البهنسا كبرنا وهللنا فخرجوا إلي ظاهر الخيام وبأيديهم السيوف والدرق والقسي والنبال ورأينا خلقا كثيرة علي الأبراج وأراد جماعة من العرب الحملة عليهم فمــنعهم الأمير وبقية الأمراء من ذلك وقالوا لا حملة إلا بعد إنذار، ثم إنهم لم يأتوا إلينا ولا ناوشونا بقتال واستقلونا في أعينهم.

(قــال الواقدي) ونزل المسلمين بجانب الجبل عند الكثيب الأصفر قريبا من البــياض الذي علي المغارة نحو المدينة هذا ما جري لهؤلاء، وأما أبو ذر الغفاري وأبــو هريــرة الدوسي ومعاذ بن جبل ومسلمة بن هاشم ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميري فإنهم ساروا حتى نزلا قريبا من القوم وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا خرج أعداء الله للقائهم. فقال مالك بن الأشتر: يا قوم إن أعداء الله خرجوا للقائكم فاشغلوهم بالقتال وأرسلوا جماعة منكم يملكون الجسر واستعينوا بالله.

فعندما خرج المرزبان ومعه ثلثمائة فارس حتي وصلوا إلي الجسر والحجارة تــساقط علــيهم مــن أعلي السور حتى ملكوا الجسر وجعلوا في أماكن المخاضات حراسا بسيوف محدودة واقتتل المسلمون أعداء الله قتالا شديدا وثبتوا في القتال سبعة أيــام، وكلما أتوا إلي مكان المخاضة وجدوه مربوطا بالرجال وصار كل ليلة نهرب مــنهم جماعــة من الروم ويهيمون علي وجوههم يريدون الصعيد فتلقاهم رافع بن

(١) سورة التحريم: الآية: ٩.

عميـرة الطائي ومعه سرية من أصحاب قيس ابن الحرث عند البلد المعروف بإدقار وكانـوا حوالـي البحر اليوسفي يشنون الغارات علي تلك السواحل، فبينما هم كذلك يسيرون إذ سمعوا دوي حوافر الخيل فظنوا أنهم مسلمون فكلموهم فلم يرد عليهم أحد فلحقـوهم وحملوا عليهم وكانوا ستمائة فارس ففروا من بين أيديهم فقتلوا منهم نحو مائتـين وهرب الباقون وقتل من المسلمين ثلاثة وهرب الروم نحو المخاضة فغرق مـنهم مائـة وأسروا منهم مائتين وهرب الباقون، فعند ذلك أوثقوهم كتافا وأتوا بهم مكتفين مع نفر من المسلمين إلي أن أوصلوهم إلي عياض بن غانم الأشعري فأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة علي البشير النذير وأقبلوا نحوهم ففرحوا بالأساري.

ثـم عرضـوهم علـي الأمراء المتقدم ذكرهم فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فـضربت أعناقهم والروم ينظرون إلي ذلك، ثم زحفت عليهم الصلبان واقتتلوا قتالا شـديدا وحمـي الحرب وكثر الطعن والضرب من ارتفاع الشمس إلي وقت العصر وفـشا القتل في الروم، فلما رأوا ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلي الفرار وصعدوا علي القلعة وغلقوا الأبواب واستعدوا للحصار ونصبوا آلات القتال.

قـال: هـذا ما جري لهؤلاء، وأما الصحابة رضي الله عنهم فإنهم نزلوا في سـفح الجبل والوادي في المكان المتسع من الجهة البحرية والجهة الغربية، فلما جاء اللـيل أوقـدوا نيرانهم واجتمعت كل قبيلة ببني عمها يقرءون القرآن ويصلون علي محمـد أشرف ولد عدنان، وما فيهم إلا من هو راكع أو ساجد أو داع الله عز وجل لعلـه أن ينـصرهم علـي عدوهم وباتت الروم اللئام يشربون الخمر داخل المدينة وخارجهـا، وقد أعلنوا بكلمة كفرهم حتى ضجت منهم أرض البهنسا واستغاثت إلي الله عـز وجـل، فناداها بلسان القدرة اسكتي يا بهنسا، فوعزتي وجلالي لأهلكنهم و لأسكننك قوما يوحدوني من خيار خلقي، ولأجعلن تلك البيع مساجد للصلاة والجمع، فلما سمعت الأرض الخطاب من قبل رب الأرباب مالت فرحا واهتزت طربا وبقيت منتظـرة وعـد ربهـا بزوال كربها فلم يكن إلا قليل حتى أزال الله عنها أهل الكفر والطغـيان وعـبدة الطغيان وعبدة الصلبان وأسكنها خير أمة أخيار من المهاجرين والأنصار من أصحاب محمد المختار يصلون بها أناء الليل وأطراف النهار، وجعلت

البــرية مدافن للسادات والشهداء الأطهار، وصار عليها بعد الظلام أنوار، وصارت زيارتها تحط الخطايا والأوزار.

(قــال الواقدي) ولما أصبح الصباح صلي المسلمون صلاة الصبح وجلسوا ينتظــرون مــا يكون من أمرا لروم وإذا بقس قد أقبل راكبا بغلة وعليه مدرعة من شعر وقلنسوة وزنار، فسار حتى وصل قريبا من العسكر، ثم تكلم بلسان عربي وقال يا مسلمين أريد أمير العرب.

(قــال الراوي) حدثنا قيس بن شماس عن كعب بن همام عن شداد بن أوس وكان من أصحاب الرايات. قال بينما نحن جلوس نتحدث مع الأمير عياض بن غانم إذ أقبل عبد الله بن عاصم وأخبر عن ذلك القس. قال فأذن له الأمير عياض بالدخول للقــس، فــوجد الأمير عياضا جالسا في خيمته علي فراش من أدم وحشوه من ليف وفرش المشركين التي اكتسبوها مطوية علي جانب وحوله السادات والأمراء رضي الله عــنه كلهــم جلوسا حوله وهو كأنه أحدهم وسيوفهم علي أفخاذهم وعليهم هيبة ووقار.

فلما دخل القس اندهش وحار وأخذه الانبهار، ثم التفت يمينا وشمالا وقال: يا قــوم أيكــم الأمير حتى أكلمه فإنكم كلكم أراكم سادات وأمراء وعليكم هيبة ووقار، فأشــاروا إلــي الأمير عياض فالتفت إليه وقال: يا فتي أنت أمير قومك. قال كذلك يــزعمون ما دمت علي طاعة الله عز وجل. فقال له القس: إن الملك البطليموس قد أرســلني إلــيكم يريد ذا الرأي والخبرة ليسأله عن أمركم، فلعل أن يكون ذلك سبب حقن الدماء بينكم وبينه. قال فعندها التفت الأمير عياض إلي أصحابه وقال ما تقولون فيما أتاكم به هذا القس، ومن ينطلق إليه ويخاطبه ويعود إلينا.

قــال: فوثب المغيرة بن شعبة وقال أنا أمضي إليه وأريد معي عشرة رجال من الأمراء ذوي المروءة والبأس. فقال له الأمير اختر من شئت وفقك الله وسددك، وردك إلينا سالما غانما، أنت ومن معك. قال فالتفت وراءه وقال: أين سعيد بن عبد القــادر، أيــن أبــو أيوب الأنصاري، أين خالد بن زيد الأنصار، أين زيد بن ثابت الأنــصاري، أيــن مــسعود البدري، أين جرير بن مطعم، أين أو يزيد العقيلي، أين

معاويـــة بن العكم الثقفي، أين عمار بن حصين، أين زيد بن أرقم، فأجابوه بالتلبية، فقال لهم خذوا أهبتكم وانطلقوا معي علي بركة الله وعونه.

قـــال: فتـــبادر هـــؤلاء الأمراء السادات إلي خيامهم ولبس كل واحد درعه وتنكبوا بحجفهم، وتقلدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم.

(قـــال الـــواقدي) ثم إن المغيرة رضي الله عنه دخل إلي خيمته ولبس درعه وشـــد وســـطه بمنطقته، وهي من الأدم وفيها خنجران واحد عن اليمين وواحد عن الـــشمال وتقلد بسيف من جوهر واعتقل برمح أسمر وركب جواده الأدهم، وأخذ كل واحد منهم عبده راكبا علي بغله وودعهم فالتفت الأمير عياض، وقال للمغيرة أعرف يا أبا شعبة ما تكلم به هذا المعلون فما عرفتك إلا مفلح الحجة فادعه إلي الإسلام وما فـــرض عليه من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد،وما أبيح من الحلال، وما حرم من الحرام، فإن أبي فالجزية في كل عام، فإن أبي فالقتال بحد الحسام ونرجو النصر من الملك الديان، بجاه محمد خير الأنام. قال فقال المغيرة أرجو من الله الملك الـــوهاب المعـــونة في رد الجواب وسارت الأمراء والقس أمامهم راكب علي بغله وعبيدهم خلفهم علي بغالهم وكل عبد عليه لامة حربه وساروا وهم معلنون بالتهليل والتكبير والصلاة علي البشير النذير.

قال زياد بن ثابت، ولما فارق القوم الأمير عياضا نظرت إليه وعيناه تذرفان بالدمـــوع حتـــى بلـــت دموعه لحيته، وهو يقرأ القرآن. فقلت أنا أيها الأمير ما هذا الـــبكاء. فقـــال لي يا ابن ثابت هؤلاء والله أنصار الدين. فإن أصيب رجل منهم فما يكـــون عـــذري عند الله عز رجل؟ قال وسار المغيرة وأصحابه حتى أشرفوا علي عـــسكر العدو، وإذا هو ملء الأرض، وهو نازل حول مدينة البهنسا فصاح المغيرة ومـــن معه يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، فبينما هم كذلك إذ أقبل إليهم بطـــريق ومعه رجل من العرب المتنصرة راكبا إلي جانبه ومعهما نحو مائة فارس وســـاروا بـــين أيديهم حتى وصلوا إلي قريب سرادق الملك ولاح البطليموس وهو جـــالس علي السرير فعند ذلك خرج لهم الحجاب والنواب وأرباب الدولة والصولة،

وقالوا قد وصلتم وبلغتم إلي سرادق الملك فانزلوا عن خيولكم وانزعوا سيوفكم فقال المغيرة، أما خيولنا فننزل عنها.

وأما سيوفنا فلا ننزعها، فإنها عزنا وما كان بالذي ينزع عزه الذي يعتز به دهــره قال فأخبر الحجاب الملك بذلك فقال دعوهم يدخلون بسيوفهم فنادتهم الحجاب ادخلوا.

(قال الواقدي) فعندها ترجل أصحاب رسول الله ﷺ عن خيولهم ويخترقون صفوف الكفار وهم لا يهابون إلي أن وصلوا إلي سرير الملك فدخلوا إلي أن وصلوا إلي النمارق والديباج والملك جالس علي سريره ولما نظر المسلمون إلي ذلك عظموا لله تعالــي وكبــروه فارتج السرادق وتغيرت ألوان القوم وصاح بهم الحجاب قبلوا الأرض للملك فلم يلتفتوا إليهم. قال المغيرة لا ينبغي السجود إلا إلي الملك المعبود، ولعمــري كانــت هذه تحيتنا قبل، فلما بعث الله تعالي محمد ﷺ نهانا عن ذلك فلا يسجد بعضنا لبعض قال فسكتوا.

قــال: فأمــر الملك بكراسي من ذهب وفضة فنصبت لهم فلم يجلسوا عليها، وكانوا من حين دخلوا أمروا بعض عبيدهم أن يطووا البسط من تحت أرجلهم إلي أن وصــلوا إلي فرش الديباج فشالوها علي جنب، فقالت لهم البطارقة: قد أسأتم الأدب معنا إذ لم تسجدوا للملك ولم تمشوا علي فرشنا.

فقال المغيرة: إن الأدب مع الله تعالي أفضل من الأدب معكم والأرض أطهر مــن فرشكم لأن رسول الله ﷺ يقول "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" وقال الله تعالي، **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخري﴾** .

(قــال الواقدي) لم يكن بين البطليموس والصحابة ترجمان لأنه كان أعرف أهل زمانه بلسان العربية، فعند ذلك أمرهم بالجلوس، فقال المغيرة إما أن تنزل عن ســريرك وتكون معنا علي الأرض أو تأذن لنا بالجلوس معك علي السرير لأن الله تعالــي شــرفنا بالإســلام قال فأشار إلي المغيرة رضي الله عنه والصحابة جلوس وأيديهم علي مقابض سيوفهم فالتفت البطليموس إلي المغيرة، وقال له ما اسمك، فقال

عـــبد الله المغيـــرة، فقال يا مغيرة أني أكره أن أبدأك بالكلام، فقال المغيرة تكلم بما شئت فإن عندي لكل كلام جوابا.

ثم إن البطليموس أفصح في كلامه وقال: الحمد لله الذي جعل سيدنا المسيح أفـــضل الأنبـــياء ومكـــنا أفضل الملوك ونحن خير سادة فقطع عليه المغيرة، فقالت الحجـــاب والـــنواب لقد أسأت الأدب مع الملك يا أخا العرب فأبي المغيرة أن يسكت وقال: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وخصنا من بين الأمم بمبعث محمد عليه أفضل الـــصلاة والسلام، فهدانا به من الضلالة، وأنقذنا به من الجهالة، وهدانا إلي الصراط المـــستقيم فـــنحن خير أمة أخرجت للناس نؤمن بنبينا ونبيكم وبجميع الأنبياء وجعل أميرنا الذي هو متولي علينا كأحدنا لو زعم أنه ملك وجار عزلناه عنا فلسنا نري له فـــضلا عليـــنا إلا بالـــتقوى، وقد جعلنا الله نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ونقر بالـــذنب ونستغفر منه، ونعبد الله وحده لا شريك له، ولو أذنب الرجل منا ذنوبا تبلغ مثل الجبال فتاب قبلت توبته، وإن مات مسلما له الجنة قال فتغير لون البطليموس.

ثـــم سكت قليلا وقال: الحمد لله الذي ابتلانا بأحسن البلاء، وأغنانا من الفقر ونـــصرنا علـــي الأمـــم الماضية ولقد كان جماعة منكم قبل اليوم يأتون إلي بلادنا فيتمارون البر والشعير وغيره ونحسن إليهم وكانوا يشكروننا علي ذلك وأنتم جئتمونا بخـــلاف ذلـــك تقـــتلون الـــرجال وتـــسبون النساء وتغنمون المال وتنهبون المدائن والحـــصون والقلاع وتريدون أن تخرجونا من بلادنا وديارنا، وأنتم لم تكن أمة من الأمم أضعف حالا منكم لأنكم أهل الشعير والدخن وجئتم بعد ذلك تطمعون في بلادنا وأموالـــنا وحولنا جنود كثيرة، وشوكتنا شديدة، وعصابتنا عظيمة، ومدينتنا حصينة فالـــذي جرأكم علينا أنكم ملكتم الشام والعراق واليمن والحجاز وارتحلتم إلي بلادنا وأفـــسدتم كـــل الفـــساد وخربتم المدائن والقلاع ولبستم ثيابا فاخرة وتعرضتم لبنات الملوك والبطارقة وجعلتموهن خدما لكم وأكلتم طعاما طيبا وما كنت تعرفونه وملأتم أيديكم بالذهب والفضة والمتاع الفاخر واللآلئ والجواهر ومعكم متاعنا وأموالنا التي من قومنا وأهل ديننا ونحن نترك لكم ذلك جميعه ولا ننازعكم عليه ولا نؤاخذكم بما تقدم من فعلكم من قتل رجالنا ونهب أموالنا، الآن فارحلوا عنا واخرجوا من بلادنا،

فـــإن فعلتم فتحنا خزائن الأموال لكل رجل منكم بمائة دينار وثوب وحرير وعمامة مطـــرزة بالذهب ولأميركم هذا ألف دينار وعشرة عمائم وعشرة ثياب، ولكل أمير منكم كذلك وللخليفة عليكم عشرة آلاف دينار ومائة ثوب حرير ومائة عمامة بعد أن نـــستوثق مـــنكم بالإيمان أنكم لا تعودون إلي الإغارة علي بلادنا هذا كله والمغيرة ســـاكت، فلمـــا فرغ البطليموس من كلامه، قال له المغيرة قد سمعنا كلامك فاسمع كلامنا، ثم قال الحمد لله الواحد القهار الفرد الصمد الذي **﴿لم يلد ولم يولد*ولم يكن له كفوا أحدا﴾**[1] فقال له البطليموس نعم ما قلت يا بدوى، فقال المغيرة أشهد أن لا إلـــه إلا الله، وأشـــهد أن محمـــدا عبده ورسوله المرتضي، ونبيه المجتبي، فقال له البطليموس لعنه الله لا أدري أن محمدا رسول الله ولعله كما يقال حبيب الرجل دينه ثـــم التفت إلي المغيرة، وقال يا عربي ما أفضل الساعات؟ فقال ساعة لا يعصي الله فيها.

قـــال: صدقت يا أخا العرب لقد بان لي رجحان عقلك فهل في قومك من له رأي مـــثل رأيك وحزم مثل حزمك قال: نعم في قومنا وعسكرنا أكثر من ألف رجل لا يستغني عن رأيهم ومشورتهم وخلفنا أمثال ذلك وهم قادمون إلينا عن قريب.

فقال البطليموس: ما كنا نظن ذلك منكم، وإنما بلغنا عنكم أنكم جماعة جهال لا عقول لكم، فقال المغيرة كنا كذلك حتى بعث الله فينا محمدا ﷺ فهدانا وأرشدنا.

فقـــال البطلـــيموس: لقد أعجبني كلامك فهل لك في صحبتي، فقال المغيرة: يـــسرني ذلـــك إذا فعلت ما أقول لك، قال: ما هو، قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله. قال البطليموس لا سبيل إلي ذلك، ولكن أردت أن أصلح الأمر بيني وبينكم.

قـــال المغيرة رضي الله عنه الأمر إلي الله وأما قولك لنا أنا أهل فقر وبؤس وضر فقد كنا كذلك وكنا أهل جاهلية لا يملك أحدنا غير فرسه وإبله وكنا لا نعظم إلا الأشهر الحرم حتى بعث الله إلينا ورسوله ﷺ نعرف أصله ونسبه صادقا أمينا نقيا

---

(١) سورة الإخلاص: الآيتان : ٣ ، ٤.

إمامـــا رســولا أظهر الإسلام وكسر الأصنام، وختم به النبيين، وعرفنا عبادة رب العالمـــين، فـــنحن نعبد الله ولا نعبد غيره، ولا نتخذ من دونه وليا ولا نصيرا، ولا نـــسجد إلا لله وحده لا شريك له، ونقر نبوة محمد ﷺ وقد أمرنا أن نجاهد من كفر بـــالله واتخـــذ مع الله شريكا جل ربنا وعلا، وهو واحد لا تأخذه سنة ولا نوم، فمن اتبعنا كان من إخواننا وله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أبي الإسلام والجزية فالسيف حكم بيننا وبينه والله خير الحاكمين، وهي علي كل محتلم في العام دينار وليس علي مـــن لم يبلغ الحلم جزية ولا علي المرأة ولا علي راهب منقطع في صومعته، فقال البطلـــيموس لقد فهمت قولك عن الإسلام فما قولك عن الجزية عن يد وهو صاغر فإنـــي لا أدري مـــا الصغار عندكم؟ فقال المغيرة رضي الله عنه وأنت قائم والسيف علي رأسك، فلما سمع البطريق كلام المغيرة غضب غضبا شديدا ووثب المغيرة من موضـــعه وانتضي سيفه من غمده، وكذلك فعل أصحاب رسول الله ﷺ كفعله وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(قال الراوي) حدثنا مسلم بن عبد الحميد عن طارق بن هلال عن عبد الله بن رافع. قال كنا مع المغيرة وجذبنا السيوف وثبنا علي القوم وأخذتنا غيرة الإسلام وما فـــي أعينـــنا من جيوش البطليموس شيء وعلمنا أن المحشر من ذلك الموضع، فلما رأي البطلـــيموس منا ذلك وتبين له الموت من شفار سيوفنا نادي مهلا يا مغيرة لا تعجـــل فـــتهلك، وأنـــا أعلـــم أنك رسول والرسول لا يقتل وإنما تكلمت بما تكلمت لأختبـــركم وأنظر ما عندكم والآن لا نؤاخذكم فاغمدوا سيوفكم. قال فأغمدوا سيوفنا وتقـــدم المغيـــرة حتى صار في مكان البطليموس وزحزحه إلي أخر السرير، وكان المغيـــرة رجلا جسيما فاتكأ عليه حتى كاد أن يخلع فخذه من موضعه. قال ثم التفت إلي المغيرة وقال ما قولكم في المسيح ابن مريم؟.

قـــال المغيـــرة: عبد الله ورسوله؟ قال فمن أي شيء خلق؟ قال خلقه الله من تراب، ثم قال له كن فكان ودل علي ذلك القرآن العظيم. قـــال عـــز وجـــــــل

﴿إن مـــثل عيسي عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[1].
قال فما الدليل علي أن الله واحد؟ فقال المغيرة القرآن العظيم، قوله تعالي علي لسان نبـــيه ﴿قل هو الله أحد*الله الصمد*لم يلد ولم يولد*ولم يكن له كفوا أحد﴾[2] فقـــال له البطليموس ما رأيت مثل حذقك وجوابك يا أعور، وكان المغيرة رضي الله عـــنه أصيب في إحدى عينيه يوم اليرموك، فقال له المغيرة إن ذلك لا يعيبني، ولقد أصيبت في الجهاد في سبيل الله من كلب مثلك وأخذت بثأري من الذي فعل بي ذلك فقتلته وقتلت جملة منهم، والثواب من الله عز وجل أعظم من ذلك. فقال البطليموس ما أحذق جوابك فهل في قومك مثلك؟.

قـــال: قد قلت لك فينا أهل العلم والرأي ومن لا أساوي في علمهم شيئا وأنا رجـــل بـــدوي، فلو رأيت علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ المختار مقاتل الكفار ومبيد الفجار والليث الكرار والبطل المغوار. قال أهو معكم في هذا الجيش فقد سمعت بشجاعته وبراعته وأريد أن أنظر إليه؟.

فقـــال المغيـــرة: قاتلك الله إن الإمام عليا كرم الله وجهه أعظم قدرا من أن يـــسير إلـــي مـــثلك .. قال: فهل أحد غيره؟ قال: نعم مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطـــاب رضـــي الله عنه هو خليفتنا وعثمان بن عفان وعبد الرحمن وسعيد وسعد وأبـــو عبـــيدة بن الجراح رضي الله عنه وأمراء متفرقين في الحجاز واليمن والشام والعـــراق ومـــصر كل أمير يقوم بألف مثلك في الشجاعة والبراعة وغير ذلك، أما سيف الله الأمير خالد بن الوليد أمير هذا الجيش ومعه عصابة من الأمراء فكأنك به، وقـــد أقـــبل علينا برجال سادات شداد وأمراء أمجاد. فقال له عند ذلك إني أريد أن أصلح الأمر بيني وبينكم وأريد قبل الحرب أن أنظر إلي جماعة ممن ذكرت.

(قـــال الـــراوي) وكان عدو الله أراد أن يغدر بأصحاب رسول الله ﷺ ففهم المغيـــرة منه ذلك. فقال: غداة غد أتيك منهم برجال تنظر إليهم. قال ففرح عدو الله وأضمر المكر لأصحاب رسول الله ﷺ ورد الله كيده في نحره.

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ٥٩.
(٢) سورة الإخلاص : الآية : ١-٤.

(قـــال الراوي) ثم وثب المغيرة وأصحابه وخرجوا من عند البطليموس وما صـــدقوا بالنجاة وركبوا وأمر البطليموس حجابه ونوابه أن يسيروا معهم إلي قريب مـــن عسكرهم. قال ووصل المغيرة وأصحابه إلي الأمير عياض بن غانم الأشعري وحدثه بما جري له مع البطليموس فقال العياض: وحق صاحب الروضة والمنبر ما تركهم إلا خوفا من سيوفكم، وهذا رجل حكيم إلا أن الشيطان قد غلب علي عقله.

(قـــال الراوي) ولم يناموا تلك الليلة إلا وقد أخذوا أهبتهم للحرب واستعدوا، فلمـــا أصـــبح الـــصباح أذن المؤذنون في عسكر المسلمين فأسبغوا الوضوء وصلوا الـــصبح، ثم ركبوا خيولهم وقد علموا أن العدو مصبحهم وقد عبوا صفوفهم، وكانت الجواســـيس مـــن العرب يدخلون في عسكرهم وينقلون الأخبار ووصلت جواسيس عـــياض بـــن غانم إليه وأعلموه بذلك، وأن الروم متأهبون للقتال فرتب جيشه ميمنه وميـــسرة، فجعـــل فـــي الميمـــنة الفـــضل بن العباس، وجعل في الميسرة أبا أيوب الأنصاري، وجعل في القلب القعقاع بن عمرو التميمي.

قـــال حدثنا قيس بن عبد الله. قال حدثنا مالك بن رفاعة عن سعيد بن عمرو الغـــنوي قال: حضر أرض البهنسا عشرة آلاف عين رأت النبي ﷺ وفيهم سبعون بـــدريا والأمـــراء وأصـــحاب الرايات نحو ألف وأربعمائة.ودفن بأرض البهنسا من الصحابة والسادات نحو خمسة آلاف وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالي.

(قـــال الـــراوي) وكان علي الرجالة معاذ بن جبل، وعلي الساقة والنسوان والـــصبيان سعد بن عبد القادر والضحاك بن قيس. قال وصار الأمير عياض يتخلل الـــصفوف ويقـــول: الله الله الجـــنة تحت ظلال السيوف: يا أهل الإسلام اعلموا إن الـــصبر مقرون بالفرج وأن الله مع الصابرين والصابرون هم الغالبون، وأن الفشل ســـبب من أسباب الخذلان، فمن صبر علي حد السيف فإذا قدم علي الله أكرم منزلته وشكر سعيه والله يحب الصابرين، وصار يقول ذلك لأصحاب الرايات. قال وما فرغ الأميـــر عياض من تعبية الصفوف إلا وعساكر البطليموس والروم قد أقبلت ومعهم النـــصاري والفلاحـــون والعرب المتنصرة، وأمامهم صليب من الذهب الأحمر زنته خمسة أرطال وفي أربعة جوانبه جواهر كالكواكب.

قـال حدثني سنان بن الحرث الهمداني عن شداد بن أوس وكان ممن حضر الفـتوح إلـي آخرها قال وأقبلت الصلبان وأنا أعدها صليبا بعد صليب حتى عددت ثمانـين صـليبا تحت كل صليب ألف ومعهم القسوس والرهبان وهم يتلون الإنجيل وأكثر أعداء الله في عسكرهم من الرايات والأعلام فبينما الناس كذلك إذ أقبل وعليه درع مـذهب ولامة حرب وهو يرطن بلغته وطلب البراز فبرز إليه القعقاع وتعاركا وتجاولا، ثم طعنه القعقاع في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره، فخرج علج آخر وقـد غضب لقتل صاحبه وكان من أصحاب الجلوس علي السرير مع الملك وطلب البراز فبرز إليه رجل من الأزد فمنعه الأمير عياض من ذلك وقال اذهب فلست كفؤا له.

قـال : فبـرز إليه المسيب بن نجيبة الفزاري وضربه فتلقاها العلج بحجفته فطار السيف من يده وضرب العلج المسيب فضيعها، ونظر أن أحدا يناوله سيفا فلم يجـد فأراد الرجوع وإذا بالقعقاع بن عمرو أقبل وبيده السيف فناوله إياه فكر راجعا وضـرب البطريق علي عاتقه الأيمن فأطلع السنان من عاتقه الأيسر فانجدل صريعا يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار وبئس القرار، فلما رأت الروم ذلك حملوا علـي المسلمين حملة واحدة واشتد القتال وعظم النزال وعدو الله البطليموس راكب علـي جـواد له صاحب صقلية والبربر يساوي خمسمائة دينار، وكان أيام الحصار يـصعد بـه ويـرمح علـي أسوار المدينة، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالي في موضـعه، وعلي بدنه درع مذهب وفي وسطه منطقة من الجوهر وعلي رأسه تاج تلمع جواهره كالكواكب والصلبان والأعلام مشتبكة علي رأسه وقد حمل كردوس من الروم علي ميمنة المسلمين فصبروا لهم صبر الكرام، ثم حمل كردوس آخر، فالله در الفضل بن العباس وأخيه عبيد الله وأولاد عقيل وعبد الله بن جعفر وسادات بني هاشم لقد قاتلوا قتالا شديداً وأبلوا بلاءاً حسنا، وتقدم الفضل إلي حامل الصليب وطعنه في صـدره فأطلع السنان يلمع من ظهره وسقط الصليب منكسا إلي الأرض، فنظر إليه البطليموس فأيقن بالهلاك وهم أن يأخذه، فلم يجد ذلك من سبيل.

قال: فأحاط به المسلمون وصار الفضل وسادات بني هاشم يذبون ويرجعون الـــروم عـــن الصليب، ولما رأي الفضل ازدحام النصارى والروم حمل عليهم حملة منكرة وأسعفه بنو عمه بالحملة والأمراء فقهروا الروم وقتلوا منهم جماعة، وازدحم المسلمون علي الصليب يريدون أخذه. فقال لهم الفضل إنه لي دونكم، ثم عطف عليه ومال في ركابه وأخذ الصليب وكر راجعا إلي المسلمين وسلمه لعبد الله يسلمه لعبده مقـــبل، وكـــان راكبا مع المسلمين، فأخذه ومضي إلي خيمته. قال وحمل الفضل بن العـــباس ثانيا وحملت الأمراء واشتد القتال وعظم النزال وسالت الدماء وكثر العرق وازورت الحـــدق. قال ولما رأي عدو الله البطليموس ذلك حمل علي المسلمين ومعه طائفة من البطارقة نحو خمسة آلاف وكانوا علي جناح الميسرة فقتلوا من المسلمين جماعة وجرحوا جماعة وصبروا لهم صبر الكرام.

هـــذا والفـــضل رضي الله عنه تارة يكر في الميمنة وتارة يكر في الميسرة وحمـــل الأمـــراء جمـــيعهم، فالله در القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجيبة الفـــزاري و البراء بن عازب ومعاذ بن جبل وزيد الخيل لقد قتلوا قتالا شديدا حتى بقي الدم علي دروعهم كقطع أكباد الإبل وتوسط المسلمون كتيبة منهم، فبرز بطريق عظـــيم الخلقـــة كأنه برج فحمل عليه سفينة مولي رسول الله ﷺ وأراد أن يضربه وسطا عليه، وإذا بضربه أتته من خلفه فأردته عن جواده وسقط والرمح مشتبك في أضـــلاعه وخشخش الرمح في عظم ظهره، ثم جذب الرمح وهو ملقي علي الأرض ونـــزل جماعـــة وأخذوا سلبه، قال فتأملنا من ضرب البطريق فإذا هو زياد بن أبي سفيان رضي الله عنه.

قال: فلما رأي الروم ذلك حملوا حملة منكرة وقامت الحرب علي ساق واحدة وضـــربت الأعناق وشخصت الأحداق وتضاربوا بالصفاح وتطاعنوا بالرماح واشتد الكفـــاح ورطنت الروم بلغتهم ولم يزالوا في قتال ونزال حتى غابت الشمس وافترق الجمعـــان، وقد قتل من قتل من المسلمين نحو مائتين وخمسين ختم الله لهم بالشهادة ونالـــوا درجة السعادة وبات الفريقان يتحارسون والمسلمون أوقدوا النيران وأتوا إلي

مكان المعركة وميزوا القتلي، فلما رأي الأمراء ما حل بهم وبأولادهم بكوا وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(قــال الراوي) وقتل من المشركين نحو ألفين وخمسمائة، وقتل من خيارهم وعظمائهم نحو عشرين من أرباب الدولة وحاشية الملك أصحاب السرير، فلما رأي البطلــيموس ذلك صعب عليه وكبر لديه وجلس في سرادقه وحوله أكابر دولته من حجابــه ونــوابه وقــدم لــه الطعام والشراب فامتنع عن ذلك، ثم التفت إلي حجابه وبطارقته ووبخهم توبيخا عظيما، وقال مثلكم لا يصلح لخدمة الملوك فما هذا الخوف والفشل الذي دخل في قلوبكم وتريدون أن تصبروا معرة عند الملوك بفعالكم هذه.

فقالوا: أيها الملك، إن هذا اليوم ما أخذنا فيه أهبتنا، وما كنا نظن أن العرب فــيهم هذه الشجاعة. فقال وما عندكم من الرأي أترضون بالعار والذل ولا سيما وقد أخذ الصليب من يديكم وخذلتموه؟.

فقالوا: أيها الملك، سوف تري منا ما يسرك في غد نكمن لهم كمينا ونخرج لهــم ونقاتلهم ويخرج عليهم الكمين ونأمر جماعة يسلسلون أنفسهم وهم الرماة كعادة الــروم أن يفعلوا ونقاتلهم ولا نمكنهم من مدينتنا ولو قتلنا عن أخرنا فاستوثق الملك مــنهم بقــولهم، ثم كتب كتابا وأرسله تحت الليل إلي بطريقي طنجة وقلعة الأبراج يــسألهم الــنجدة وكانوا بطارقة شدادا كل بطريق تحت يده عشرة آلاف بطريق من حملــة السلاح، فلما ورد عليهم الكتاب جهزوا النجدة والأهبة، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالي.

(قــال الراوي) واصبح المسلمون فصلوا صلاة الصبح وتبادروا إلي خيولهم فــركبوها، ثم صفوا صفوفهم ورتبوا مواقفهم كما ذكرنا أولا، وصار الأمير عياض يحرض الناس وقد جعل في مكانه المغيرة بن شعبة وعطفوا علي أصحاب الرايات، وقــال لهــم أطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة، وإذا لقيتم العدو فاحملوا حملة واحدة ولا تخافــوا ولا ترهبوا وركب الأمراء كاليوم الأول ولم يركبوا حتى دفنوا شهداءهم في ثيابهم ودمائهم.

قـــال: فما شعرنا إلا والروم قد أقبلوا علينا ورطنوا بلغتهم علينا وابتدر منهم خمـــسة آلاف فنـــزلوا عـــن خيولهم وأرسلوها مع غلمانهم وحفروا لهم حفائر إلي أوســـاطهم ووضـــعوا غرائر النشاب: أي الصناديق بين أيديهم وأقسموا بالمسيح لا يزولون ولو قتلوا عن أخرهم وكانوا ثلاثة صفوف.

(قال الراوي) حدثنا سنان بن أبي عبيدة عن زياد عن الحرث عن عبد يغوث وكان من أصحاب الرايات.

قال: بينما نحن نتأهب للحرب وللحملة إذا بالروم قد حملوا علينا حملة واحدة وحملت ميمنتنا واختلط القلب بالقلب ورمت المسلسلة بنشابها فكان يخرج منهم عشرة آلاف ســـهم كأنهـــا تخـــرج من كبد قوس واحدة كالجراد المنتشر أو السيل المنحدر فخرجت رجالا وقتلت أبطالا وولت خيل العرب نافرة وصبرت جماعة من الأمراء وحمـــل الفـــضل بـــن العباس وأخوه وسادات بني هاشم، كذلك زياد بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة والمسيب ابن نجيبة الفزاري وجميع الأمراء واقتتل الفريقان قتالا شديدا وفشا القتل في المسلمين، وثبت القوم لقتال العرب، وعدو الله البطليموس تارة يكر في الميمنة وتارة يكون في الميسرة وتارة في القلب وحوله كتائب المشركين.

(قـــال الـــراوي) فـــصبرنا صبر الكرام ووطنا أنفسنا علي الموت والأمراء يحرضون علي القتال، وقد قتل من الفريقين طائفة إلا أن القتل لم يبين في المشركين لكثـــرتهم، ولم نظن أن القوم لهم كمين إذ خرج للقوم كمين من خلفنا والمسلسلة من بـــين أيدينا وأحاطوا بنا وصرنا بينهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وقتل جماعـــة مـــن الـــسادة والأمراء وأخلاط الناس، فلله در سادات بني هاشم وأبان بن عثمان بن عفان. فلقد قاتل أصحاب الرايات براياتها، وقاتل عدو الله في القلب وأنكي في المسلمين وقتل رجالا وجندل أبطالا، وكلما طلبه فارس من المسلمين لم يجده إلا وهو قد صار في وسط الروم.

قال: فعندها تقدم القعقاع والمسيب بن نجيبة الفزاري، وقالا قربوا الجمال في وجـــوه القـــوم يا وجوه العرب فاستاقوا الإبل وسابك الخيل وأقبلت الرجال والرماة يقـــتلونهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة: هذا والروم علي حالهم، فلما رأي أعداء الله

مـــا حــل بقومهم من فعل المسلمين بهم ازدادوا طغيانا ولم يزالوا كذلك حتى غابت الـشمس، ثم أنزل الله نصره علي المسلمين فتظاهروا عليهم، وتقدم جعفر بن عقيل إلي كتيبة من الروم وغاص في أوساطهم وطعن البطريق المقدم عليهم فقتله، وكذلك زيــد بــن زياد فقتل منهم جماعة فقتلوهم وعظم النزال واشتد القتال وألجئوهم إلي ورائهم، فلما رأت الأمراء والسادات وبنو هاشم ما حل بهم تواثبوا كالأسود الضارية وحملوا علي الروم وألجئوهم إلي الأبواب واقتتلوا قتالا شديدا عند باب الجبل والباب البحري.

(قــال الــراوي) وكانت ليلة لم تر الصحابة مثلها قتل الصحابة رضي الله عنهم ألوفا وقتل منهم جماعة بظاهر البلد نحو خمسمائة وأزيد وتظاهر المسلمون بعد ذلــك عليهم وألجئوهم إلي السور واقتتلوا قتالا شديدا وعظم البلاء وعدو الله يحمي أصــحابه وهــم في أشد القتال، وكان شعار المسلمين تلك الليلة ينادون: يا محمد يا نــصر الله أنزل وقتل جماعة من المسلمين عند الأبواب وعظم النزال، وكان يسمع ضــرب الــسيوف علــي الدرق كالرعد وبريق السيوف كالبرق ولمعان كالكواكب وأحــدقت المسلمون بالروم وعدو الله يحمي قومه تارة يكون عند باب قندوس وتارة يكــون عند باب توما في جماعة من قومه حتى دخل الروم جميعهم ولم يبق إلا من انقطع من قومه أو كبا به جواده ولم يزلوا كذلك حتى طلع الفجر فعلوا علي الأسوار وضــربوا بالنواقــيس والبوقات والقرون وعقلوا الأبواب ورموا الأقفال، فلما أصبح الــصباح صــلي المسلمون صلاة الصبح وأتوا إلي موضع المعركة وتفقدوا من قتل مــنهم فإذا هم خمسمائة وعشرون رجلا من باب توما إلي باب قندوس ختم الله لهم بالشهادة.

(قــال الراوي) ولما رأي المسلمون ذلك بكوا بكاء شديدا وأعظم الناس حزنا الأميــر عــياض لأجل من قتل تحت رايته، وكان البكاء علي الشهداء الأعيان من قــريش وبنــي هاشم وبني المطلب وبني نوفل وبني عبد شمس، فلما رأي مسلم بن عقــيل أخوته وما حل بهم، ورأي الفضل بن العباس وعبد الله بن جعفر وسادات ما

حـــل ببني عمهم نزلوا عن خيولهم وعانقوا شهداءهم واسترجعوا في مصابهم، فعند ذلك أنشد همام بن جرير يقول:

يـــاعين ابكي لا تملي البكي	سحي دموعا مثل سكب الغمام
وابكي علي السادات من هاشم	وعصبة المختـــار خير الأنام
نوحي علي الليث ابن عم النبي	هو جعفر المشكور ليث همام
وابـــكي علي الشهداء لا تغفلي	مــــا لاح برق أو غني حمام
فـــلا لقي البطليموس خيرا ولا	أجـــــناده أهل الصليب اللئام
لـــنأخذن الـــــثأر يــــا قومنا	بـــــطعن خطي وحد الحسام

قـــال: ووراي المـــسلمون شهداءهم، ثم إن الأمير عياضا فرق الأمراء علي الأبواب فنزل السادات من بني هاشم وغيرهم مثل زياد بن أبي سفيان والوليد وأخيه محمـــد وأســـامة ابن زيد وأبي أيوب الأنصاري وفضالة بن عبيد. وأوس بن حذيفة وعمرو بن حصين ورافع ابن خديج وأبي دجانة وجابر بن عبد الله وبقية الأمراء.

قـــال: ونزل القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجيبة الفزاري وأمثالهم مـــن الأمـــراء بألفـــي فارس علي باب الجبل والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة والمهلب الطائـــي ونظـــراؤهم من الأمراء بألفي فارس عند باب توما. قال وعبي القوم آلات الحصار ورتبوها علي الأسوار وأقاموا مدة شهر لا يقاتل بعضهم بعضا، بل كل يوم يركب البطليموس لعنه الله جواده المتقدم ذكره ويلبس لامة حربه ويطلع بالجواد علي أعلـــي الـــسور وحـــوله المشاة من خلفه وقدامه وبأيديهم السيوف المحددة و الدرق والدبابيس والأطيار المذهبة والقسي والنشاب وكان عرض السور يمشي عليه خيالان متكاتفان باللبس الكامل.

قـــال: هـــذا ما جري هؤلاء، وأما خالد فإنه أرسل عبد الرحمن بن أبي بكر وعـــبد الله ابن عمر إلي الفيوم وجري بينهم وقعات وحروب اختصرنا ذكرها خوف الإطالة، فإن المقصود الذي عليه مدار هذا الكتاب هو فتح البهنسا وما وقع فيها والله اعلم، ثم أنهم ساروا حتى اتصلوا إلي مدينة الفيوم وحاصروا أياما قلائل، ثم فتحوها

وفتحوا الفيوم في أقل من شهر وأخذوا الأموال والغنائم ورجعوا إلي خالد رضي الله عنه وكان مقيما بالنورية كما ذكرنا.

قال: هذا ما جري لهم، وأما أبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي وذو الكلاع الحميري ومالك الأشتر النخعي فإنهم لما ضربوا رقاب القوم كما ذكرنا حاصروا القلعة نحو عشرين يوما واقتتلوا قتالا شديدا.

قال: حدثنا قيس بن مالك عن منصور بن رافع عن أبي المنهال وكان من أصحاب مالك الأشتر.

قال: بينما نحن نحاصر القلعة، وقد تظاهروا علينا إذ نحن بغبرة وقت الفجر، وكانت ليلة مقمرة فلاحت لنا خيل وقعقعة لجم فتبادرنا إلي خيولنا فركبناها، واتضح النهار وبان، وإذا عشرون صليبا تحت كل صليب ألف فارس، وكان السبب في ذلك بطريق طحا ذات الأعمدة وبطريق قلعة ذات الأبراج وما حولهم لما بلغنا كتاب البطليموس تجهزوا بأنفسهم وجمعوا ما حولهم من الروم النصارى وخرجوا أول الليل خوفا من العرب، فما أصبحوا إلا علي القلعة والنيل كان في أول زيادته والمسلمون قد أخذوا المعابر والقناطر التي علي البحر اليوسفي فقطعوها وساروا حتى نزلوا علي القلعة وكان بلغهم حصارها فلم تشعر المسلمون إلا وقد أقبلوا وهجموا عليهم وأتوا إلي نحو باب المدينة فوجدوا الأمير زيادا وأصحابه هناك. قال مالك الأشتر يا وجوه العرب اجعلوا البحر خلف ظهوركم وقاتلوا أعداءكم واستعينوا بخالقكم، هذا والروم صاحوا وطمطموا بلغتهم ورطنوا من أعلي السور، وكذلك أهل القلعة دقوا الطبول وضربوا النواقيس فلم يزالوا علي المسلمين متقابلين وجاءت كتيبة من الروم إلي جانب البحر كما ذكرنا نحو ثلاثة آلاف، وكان الأمير زياد رضي الله عنه في نحو مائتين من أصحاب رسول الله ﷺ فحملوا عليهم وصبروا لهم صبر الكرام وقتل الأمير زياد رحمه الله تعالي وقتل معه جماعة من المسلمين ختم الله لهم بالشهادة وركب بقية المسلمين وقاتلوا قتالا شديدا وصبروا صبر الكرام.

(قال الراوي) فسمع المسلمون وهم حول المدينة فأتوا إلي الجانب الشرقي فوجدوا السيوف مجذوبة والرايات مرفوعة، وقد قتل جماعة من المسلمين علي

شـــاطئ البحـــر نحو أربعين رجلا فصاحت ما فعلوا بنا، فعندما هجم القعقاع بفرسه البحر، وقال بسم الله وعلي بركة رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم أننا أفضل من بني إسرائيل عندك، وقد فرقت لهم البحر فساروا ولم تبتل قوائم الخيل وانحدر إلي جانب القلعة، وكانت بقلب البحر فاقتحم البحر خلفه نحو من ألفي فارس إلي أن طلعوا إلي البر الشرقي، واقتتلوا قتالا شديدا.

قال: فبينما نحن في أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن ألف فارس يقـــدمهم رفاعة بن زهير المحاربى وهم من أصحاب قيس بن الحرث وكانوا في بلد تـــسمي بـــردوها وكانوا صالحوا أهلها فجاءهم رجل من المعاهدين وأخبرهم بمسير طحـــا ذات الأعمدة وصاحب قلعة الأبراج لقتال المسلمين واعملوا أن البحر حاجز بيـــنهم وبين أصحابهم فأتوا إلي الأمير قيس بن الحرث واستأذنوه حتى وصلوا وهم في القتال كما ذكرنا، فلما رأوا القوم كبروا فأجابوهم بالتهليل والتكبير والصلاة علي البشير النذير.

ثم حملوا عليهم وقاتلوهم قتالا شديدا، وكان الفضل بن العباس وزياد بن أبي ســـفيان ومسلم بن عقيل في جملة من عبر إلي البر الشرقي، فعندها وثب القعقاع بن عمرو التميمي علي بطريق القلعة فقتله وكذلك الفضل بن العباس وثب علي بطريق طحـــا ذات الأعمـــدة فقتله وزياد بن أبي سفيان علي بطريق عظيم فقتله، فلما رأي الـــروم ذلك ولو الأدبار وركنوا إلي الفرار وهرب منهم جماعة فألجئوهم إلي البحر فغـــرق منهم جماعة وأسر منهم نحو ثلاثة آلاف وأتوا بهم إلي نحو السور قريبا منه وضربوا أعناقهم والبطليموس ينظر إليهم هو وأصحابه ودفن الأمير زياد إلي جانب البحـــر تحت جدران القلعة ورجعت المسلمون ونصبوا الجسر بالأخشاب والأحجار تتـــساقط وهـــم لا يفكرون حتى عبروا إلي الجانب الغربي بأجمعهم واشتد الحصار وأقام المسلمون محاصرين مدينة البهنسا تسعة أشهر.

(قـــال الواقدي) وأن المدينة كان لها باب سري تحت الأرض من تحت باب الجـــبل من عند تل هناك يظن من رأه أنه مغارة أو حفر في الجبل وكان يخرج من يعيـــنه ومـــن يأتـــيه بالطعام وغيره سرا تحت ظلام الليل إلي ذلك المكان ويخرج

الـــرجل وفرسه علي يده إلي ظاهر السرب فلأجل هذا لا يعجزهم الحصار وكان إذا احـــتاج إلي أمر مهم يخرج من يثق به من ذلك المكان ويوقد الشمع والفوانيس ليلا ويخرج من يختار من ذلك الباب وكان الملوك القدماء ما وضعوا ذلك الباب إلا لأجل الحـــصار وكانت عيوبه تخرج وتأتيه بالأخبار، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه لما فتح الفيوم صارت الميرة والعلوفة والأرز والعسل وغير ذلك تأتي للصحابة من الفيوم ومن الوجه البحري تأتي إليهم الميرة.

قال: فأرسل الأمير عياض رضي الله عنه لأمير مياس بن حام وأرسل معه مائتـــين مـــن المسلمين ومعهم جمال وبغال يأتونهم بما ذكرنا، وكان خالد قد أرسل يعلمهـــم بذلك وأنهم يرسلون إلي الفيوم ويأخذون ما يحتاجون إليه، قال وسار مياس حتى وصل الفيوم، وكان عليهم متكلما من قبل خالد الأمير عجرفجة.

قـــال: وســـار مـــياس ومن معه حتى قدموا الفيوم وأوثقوا الجمال والبغال وأرادوا الـــرجوع إلي أرض البهنسا حتى وصلوا إلي دير هناك في الجبل. قال هذا ما جري لهؤلاء.

وأما عيون البطليموس فأخبروا بذلك فاستدعي ببطريق من أصحاب السرير اسمه ميخائيل بن بطرس وكان معروفا بالشدة والبراعة وأمره أن يأخذ معه ألفا من الـــروم وينطلقوا إلي طريق الفيوم ويكمنوا لهم في الدير، ثم يخرجوا عليهم فخرجوا من باب السرب واحدا بعد واحد في ظلام الليل وساروا حتى وصلوا إلي دير وكمنوا هـــناك حتى رأوا المسلمين فخرجوا عليهم فالتقي الجمعان واصطدم الفريقان وقاتلت المسلمون قتالا شديدا.

(قـــال الـــراوي) حدثنا أبو محمد البدوي أبو العلاء المحاربي، قال شداد بن أوس وكـــان فـــي خـــيل مياس لما التقي الجمعان، وأحاطت بنا أعداء الله وظننا أن المحـــشر من ذلك المكان ووطنا أنفسنا علي الموت وقاتل الأمير مياس بعد أن سلم الـــراية لوالده فقاتل حتى قتل، ثم قاتل من بعده مازن حتى قتل ولم تكن غير ساعة حتى قتل من المسلمين نحو مائة فارس وأسروا الباقين.

قال: وكان في القوم عبد الله بن أنيس الجهني رضي الله عنه أحد سعاة النبي ﷺ ، فلمـــا رأي ذلك خرج كالريح الهبوب وقام يجري وكان قد دعا له رسول الله ﷺ هـــو وعمـــرو ابن أمية الضمري بالقوة والبركة في المشي، وكانا لا تدركهما الخيل العتاق ولا النجب السوابق فسار حتى أشرف علي العسكر وصاح النفير النفير اركبوا يا مسلمون.

قال: فتواثب الفرسان إليه وسألوه فقص عليهم القصة فتواثب المسلمون إلي خـــيولهم فـــركبوها وكل يقول أنا أمضي فعندها استدعي الأمير عياض بعبد الله بن جعفر الطيار أخي علي بن أبي طالب وضم إليه ألف فارس من الصحابة رضي الله عنهم من أهل الشدة وساروا أول الليل ومعهم رجل من المعاهدين يدلهم إلي أن قربوا مـــن قـــرية هناك بسفح الجبل فكمنوا هناك إلي أن جن الليل إذ سمعوا حوافر الخيل فتواثـــبوا إلـــي خيولهم فركبوها، وإذا بالروم أقبلوا عليهم والأساري معهم موثوقون بالجمال علي ظهور خيولهم، وكانت ليلة مقمرة فصاحت المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة علي البشير النذير وحمل القوم واقتتلوا قتالا شديدا فعندها صاح عبد الله بن جعفر رضي الله عنه يا قوم أيعجز أحدكم عن خصمه.

قال: فتواثب الأمراء والسادات رضي الله عنهم يقتلون ويأسرون وبادر عبد الله بـــن جعفر إلي مقدم الجيش لعنه الله، وكان عليه درع مصفح فطعنه في صدره طعنه قرشية هاشمية فأطلع السنان يلمع من ظهره وعجل الله بروحه إلي النار وبئس القـــرار، فلما رأي الروم ذلك انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون، فمـــا أصبح الصباح حتى قتل منهم خمسمائة وأسروا الباقين وخلصوا المسلمين من الأســـر وغـــنموا سلاح الروم وأموالهم وخيولهم وترك عبد الله بن جعفر الأساري وخمـــسمائة من المسلمين عند القرية وأمرهم أن لا يبرحوا حتى تأتيهم، وأمر عليهم عـــبد الله بـــن معقـــل وساروا حتى أتوا إلي محل المعركة ووجدوا القتلى وعندهم نـــصارى مـــن المعاهدين يبكون وحلفوا لهم أن لا علم لهم بذلك فنزلوا عن خيولهم وأخرجوا لهم زاد فأكلوا وواروا شهداءهم، وكر عبد الله راجعا إلي أصحابه وحملوا رؤوس القتلـــي ورأس عـــدو الله ميخائيل أمامهم وجنبوا خيولهم وأخرجوا لهم زادا

فأكلـــوا وساقوا الأساري حتى وصلوا إلي العسكر بالميرة والعلوفة ومعهم من العسل والسليط.

قـــال: وأعلـــنوا بالتهلـــيل والتكبيـــر والصلاة علي البشير النذير وأجابتهم المسلمون إلي مثل ذلك وانقلب العسكر والروم علي الأسوار ينظرون ما الخبر فرأوا تلك الرؤوس علي رؤوس عدو الله ميخائيل أمامهم فصعب عليهم وكبر لديهم ولطموا علـــي وجوههم وذهبوا إلي البطليموس وأعلموه بذلك فصعب عليه واستدعي بجواده فركبه وصعد علي السور حتى أشرف علي المسلمين، فلما رأي عظم عليه، وقال ما هـــؤلاء إنس و إنما هم جن، فلما رأي المسلمون البطليموس أتوا إلي الأمير فأعلموه بـــذلك فـــركب الأمراء معه حتى أتي إلي تل هناك عال مقابل باب قندس واستدعي بالأســـاري وعـــرض عليهم الإسلام فأبوا فضربوا رقابهم والروم ينظرون إلي ذلك فغضب عند ذلك البطليموس غضبا شديدا وحمل هما عظيما.

(قـــال الراوي) ثم إن عدو الله استشار أصحابه فيما يفعل وأنه يريد الخروج بنفسه والكبسة عليهم.

قـــال: فـــنهض إليه البطريق اسمه كراكر، وكان فارسا شديدا، وقال أنا أيها الملـــك أكفـــيك هذا المهم وأكبس عليهم لعلي أن أنال منهم منالا وأريد معي جماعة شدادا، فقال الملك خذ من شئت فانتدب معه عشرة بطارقة تحت يد كل بطريق ألف وجـــاءوا إلـــي كنيـــستهم وفتحوا الإنجيل في وجوههم وساروا إلي أن وصلوا إلي الأبواب والبطليموس يحرضهم، ويوصيهم بالهجمة عليهم ما داموا علي غفلة.

ثـــم أمر الحراس بفتح الباب لهم وهو باب قندوس وكانوا ألف فارس بوابين علـــي الباب، وكان للباب ثلاثة أبراج بين كل برجين باب وشراريف وخرجوا وهم مستعدون لذلك والمسلمون تلك الليلة من جهة باب قندوس معهم زائد بن ثابت وعبيد الله بـــن عـــباس وعـــبد الله بن معقل والبراء بن عازب ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميري.

(قال الراوي) حدثنا عوف بن سعد عن سعيد بن طارق الثقفي عن أبي يزيد عن مالك الأشتر، قال بينما نحن نسهر تلك الليلة والمسلمون قد هجعوا في مراقدهم

مــن شدة البرد وكثرة السهر ووضعوا أسلحتهم، منهم من له ورد يقرؤه ومنهم من يــصلي إذ رأيــنا فــتح الباب وخرجوا كالسلاهب وبأيديهم الفوانيس ومشاعل النار وحملوا علي الجيش فتبادرنا إليهم وصحنا النفير دهينا، يا مسلمون ثوروا فقد غدركم القوم.

فلما سمع المسلمون الصياح تبادروا وثاروا من مضاجعهم كالأسود الضارية هذا يأخذ سيفه وهذا يأخذ رمحه، وهذا عاري الجسد لم يمهل حتى يلبس ثيابه، وهذا يــشد وسطه بمئزره، وهذا عليه قميص واحد وثاروا في صدور الرجال، هذا وعدو الله قــد عطف علي جماعة من المسلمين قبل أن ينتهوا ووضع السيف في عراضهم فمــا أفاق بض القوم إلا والسيف قد أحاط رأس هذا وقطع زند هذا وطعن نحر هذا وهكذا وكثر الصياح وعظم البلاء وكثر القتال وعدو الله كراكر عليه ديباجة حمراء مقــصبة بالــذهب تلمــع من فوق الدروع وعلي رأسه بيضة عليها جوهر تضيء كالكــواكب وهو يهدر كالجمل الهائج، وهو يرطن بلغته وخلفه جماعة والذين علي الأسوار يصيحون ويزعقون بشعارهم ويضربون بقرونهم وبوقاتهم وطبولهم وأوقدوا مــشاعلهم مــن أعلي السور حتى بقي مثل النهار، هذا وقد ثارت الأمراء أصحاب الــنجدة وذوو المــروءات واعتقلوا بسيوفهم وركبوا خيولهم فمنهم من ركب جواده عــريانا، ومنهم من ركب فرسه بغير لجام، ومنهم من أسرع ماشيا، فلله در الفضل ابــن العباس وابن عمه الفضل بن أبي لهب وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبي سفيان والقعقــاع بن عمرو والمسيب بن نجيبة الفزاري والمغيرة ومسلم وأبي ذر الغفاري وأبــي دجانــة وأبــي أمامة وغفر بن عقبة وأبي زير العقيلي ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم لقد قاتلوا قتالا شديدا، وابلو بلاء عظيما، وطعن جماعة من المسلمين وجرح جماعة من المسلمين.

وأما الذين هاجموهم في أول الوقعة فقتل منهم جماعة نحو المائتين وثمانين رجــلا واقتتل الناس قتالا شديدا، وأقبل الفضل بن العباس إلي البطريق كراكر لعنه الله وضــربه بالــسيف علي عاتقه الأيمن فأطلع السنان يلمع من عاتقه الأيسر فوقع يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار وبئس القرار وأتبعه بالجملة ابن عمه عبد

الله بن جعفر فقتل بطريقا أخر، ولم تكن إلا ساعة وقد أجلتهم بقية الأمراء من علي أبوابهم وتركوا مكانهم من يثقون به وساروا إلي أن وصلوا إليهم وحملوا عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة نحوا من ثلاثة آلاف من الروم والنصارى.

فلما رأي الروم ذلك فروا نحو الباب وتبعهم المسلمون إلي الباب فخرج كردوس عظيم من الروم وحموا المنهزمين وأسر المسلمون من الروم نحو ألف ومائتين وخمسين وأتوا إلي مكان المعركة يتفقدون من قتل منهم.

فإذا هم أربعمائة وخمسة وثلاثون رجلا ختم الله لهم بالشهادة، فلما رأي المسلمون ذلك شق عليهم وكبر لديهم وأسرعوا تحت الليل وجمعوا الشهداء ودفنوهم في ثيابهم ودمائهم في مكان يعرف بالبطحي عند مجري الحصي ومنقع السيل فدفنوهم هناك كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة وكل خمسة في قبر وقدموا أهل السابقة وأصحاب القرآن وكان يعرف ذلك المكان بقبور الشهداء الأخيار، والدعاء هناك مستجاب مجرب مرارا وتحط هناك الأوزار لمن يكثر من الدعاء والتطوع والاستغفار.

(قال الواقدي) ما حدثت في هذا الكتاب إلا علي قاعدة الصدق وأذكر ما وقع من الأمور وحدث عن أصحاب التواريخ وثقات المحدثين من أصحاب السير ومن سماع كلامه كالدر، فهذا كالعقد النفيس في السلوك والتأسيس لا يليق سماعه إلا لذوي البصائر والعلماء والملوك فإنه نزهة الناظر ويشرح الخاطر، لم يجمع أحد مثله من أهل السير لما فيه من الأمثال والعجائب والأخبار الصحيحة المنقولة عن ثقات المحدثين يتلذذ بذلك المستمعون، ولنرجع إلي سياق الحديث.

(قال الواقدي) حدثنا عبد الله بن عبد الواحد القاري عن أبي سراقة بن نوفل الخزرجي عن أبي لبابة بن المنذر وكان من أصحاب الرايات. قال ولما وارينا الشهداء رجعنا إلي خيامنا وعدو الله البطليموس قد أغلق الباب وألقي الأقفال وعلوا علي الأسوار، قال ولما رجع المنهزمون إلي البطليموس صعب عليه وكبر لديه وأظلمت الدنيا في وجهه وحمل هما عظيما علي من قتل من بطارقته وجماعته ونوي المكايد والمصائب للمسلمين.

(قـال الـراوي) هذا ما جري لهؤلاء، وأما الصحابة رضي الله عنهم فإنهم اجـتمعوا عـند الأمير وتذاكروا ما حصل للمسلمين من البطليموس لعنه الله واتفق رأيهـم أن يرسـلوا إلي الأمير خالد بن الولّيد رضي الله عنه يسألوه أن يسير بنفسه وبمـن معه وكتب كتابا يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله بن غانم إلي الأمير خالد بن الوليد اعلم أيها الأمير أننا فتحنا الشام والعراق واليمن والحجاز ولم نجـد فـي التـرك والـروم والفرس والديلم ألعن من هذا الملعون بطريق البهنسا البطليموس ولا أكثر منه خداعا ولا مكرا و لا حيلة وأنها مدينة آهلة بالخيل حصينة بالـرجال، وقـد خدعونا مرارا وقد قتلوا منا رجالا، فأنجدل بنفسك وبمن معك من المسلمين، والسلام ورحمة الله وبركاته عليكم، وطوي الكتاب وسلمه إلي عبد الله بن المنذر فأخذه وأتي به إلي الأمير خالد فوجده نازلا علي النورية، فسلم عليه ودفع له الكتاب، فلما قرأه وفهم ما فيه استرجع وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم التفت إلي عبد الله وقال قل للأمير عياض أن الأمير خالد قادم عليك برجال وأي رجـال والسلام عليك وعلي من معك من المسلمين من المهاجرين والأنصار فرجع عبد الله ثاني يوم إلي البهنسا ورد الكتاب إلي الأمير عياض بن غانم.

قـال: ثم استدعي الأمير خالد بأبي عبد الله وضم إليه ثلثمائة فارس وأمرهم بالمـسير إلي أرض البهنسا وقال لهم: إذا وصلتم إلي أرض البهنسا فأعلنوا بالتهليل والتكبيـر والـصلاة علي البشير النذير، فسار الزبير رضي الله عنه فلما بعدوا دعا بالمقـداد ابـن الأسود وضرار بن الأزور ودفع لهما مائتي فارس وأمرهما بالمسير علي أثر المقداد، ثم استدعي بسعيد بن زياد بن عمرو بن نوفل خال رسول الله ﷺ وعقـبة بن عامر الفهري، ودفع لهما مائتي فارس وأمرهما أن يسيرا، وبات الأمير خالد تلك الليلة، ولما أصبح صلي وصلي معه بقية الأمراء من المهاجرين والأنصار الأخيار رضي الله عنهم.

(قـال الـراوي) وسـار الزبير رضي الله عنه بمن معه حتى أشرف علي البهنسا فكبر وكبر ومعه المسلمون وأنشد يقول:

أتيانـكم علي خيل عتاق ... شبيـــه الريح يوم الاستباق

عـــليها كل صنديد همام	شديد البأس يوم الحرب راقي
نذل حـــماتكم بالسمر لما	نـــجول بها مع البيض الرقاق
ونقتل كل ملعون وبـــاغ	عـــلي الإسلام من أهل النفاق
ونحن حماه دين الله حقا	نقر بـــأن رب العرش باقي
وأن مـــحمدا خير البرايا	رســـــــول الله للعلياء راقي

قـــال: وأشرفت الروم علي أبواب المدينة ينظرون إليهم، فلما لبثوا غير قليل حتـــى أشرف عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم وكبر وكبرت المسلمون قال ثم أنشد يقول:

أنا الفارس المشهور للحرب في الوغى	أذل بسيفي كل بـــــاغ و معتدى
وأحـــمل في الأبـــــطال حملة من له	إلي الغاية القصوى أعاظم مقصدي
أنـــا ابن أبي بكر الذي شاع ذكره	خـــــليفة خـــــير المرسلين محمد
فـــيا ويل من عالي حسامي رأسه	ويــــــا ويل من عـــــاجلته بمهند

(قـــال الـــراوي) ثـــم أشـــرف من بعده عبد الله بن عمر وكبر وكبرت المسلمون لتكبيره ثم أنشد يقول:

أتينا علي خـــيل عتاق وضمر	بـــــكل يمـــــان ذي حداد وأسمر
بكف شجاع بـــــاع الله نفسه	يري الموت في الهيجاء أفخر مفخر
نذلكم بالسيف في الحرب والقنا	ونقتل منـــــكم كل بـــــاغ ومفترى

(قـــال الراوي) ولم يزل كل أمير ينزل بجماعته حتى تكاملوا وتأخر الأمير خالـــد وبقـــية الأمراء الذين معه، ولما بات أصحاب رسول الله ﷺ وأصبحوا، قال ضرار بن الأزور والأمراء للأمير غانم: أظنكم أنتم المحاصرون وأعداؤكم في أكل وشرب بهذا القعود؟ ثم رجعوا للأبواب وضرار ينشد ويقول:

سأضرب في العلوج بكل غضب	شـــديد البأس ذي حد صقيل
وأضرم في عـــــــلو الباب نارا	وأرمي القوم بالخطب الجليل
وأتـــــرك دارهم منهم خرابــــا	ولــــم أمهل بذي شبح كفيل
فـــــويل ثـــــم ويل ثم ويل	لـــــــهم مني بمشتد العويل

سـأقتل كل باغ كان منهم   بحد السـيف والباع الطويل

قـال: ولـم يزل يترنم بهذه الأبيات ويرموا بالسهام والمقاليع واقتتلوا قتالا شـديدا فاشتدت حمية عتيد الروم، وجمع الملعون البطارقة من ذوي الشدة والبأس، وكان هو فارسا شديدا وبطلا كما ذكرنا، وفتح باب الجبل وخرج منه كأنه شعلة نار علـي جرائد الخيل والرماة بين يديه يرمون بالنشاب والمجانيق من أعلي الأبراج، واقتتلوا قتالا شديدا وجرح من المسلمين جماعة، وكانت مقتلة عظيمة وبقية الأمراء لا يعلمون وأنكي من المسلمين جماعة.

قال: فعندها ضجت الأمراء أصحاب الرايات وأقبل علج عظيم من البطارقة وطلب البراز، فبرز إليه بن شعبة، فحمل عليه البطريق واقتتلا قتالا شديدا، فضربه المغيـرة بالسيف فطاح من يده، وبادر عدو الله إلي المغيرة ليضربه، وإذا بفارس قد أقبل بيده سيف مجذوب فلوح به إلي المغيرة وإذا هو عبد الرحمن بن أبي بكر فأخذه المغيـرة وضـرب بـه البطريق فحاد عنها وقرب من المغيرة وتجاذبا، وكلما أراد المغيـرة أن يـسطو علي العلج بمانع عن نفسه ونظر ضرار بن الأزور إلي ذلك، فتـرجل عن جواده وسعي بين الصفوف حتى قرب من البطريق وضربه في حزامه فقطعـه، فسقط عدو الله وهو جاذب المغيرة إلي الأرض فعندها تكاثرت الروم علي ضـرار والمغيـرة فأرادوا قتلهما، وإذا بثلاثة فوارس قد أقبلوا واخترقوا الصفوف أحـدهم عـبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، والثاني عبد الله بن عمر بن الخطاب، والـثالث المقـداد بن الأسود الكندي رضي الله عنهم، فأزالوهم عن مراكزهم وقتلوا ثلاثة من الروم، وفرقوا الكتائب عنهم وضرب ضرار البطريق فقتله. وركب ضرار جـوادا من خيل المقتولين وأخذوا الأسلاب، هذا وعدو الله البطليموس لعنه الله تارة يكر في الميمنة وتارة يكر في الميسرة وطلب البراز.

فبـرز إليه المقداد بن الأسود الكندي رضي الله عنه وتعاركا وتجاولا وتطاعنا. قال المقـداد بن الأسود قاتلت ملوكا وفتحت قلاعا ولاقيت حروبا في الجاهلية والإسلام، فلـم أر أخـدع من البطليموس ولا أشد بأسا ولا أصعب مراسا منه فتقاتلا حتى كل الجوادان والتفت إلي وقال: ما أجرأ فرسك كيف تقاتل عليه وهو بثلاث أرجل.

قال المقداد: فمن شفقتي عيل جوادي طأطأت رأسي لأنظر إلي قوائمه فضربني بالسيف ضربة قوية فقطعت الخوذة والرفادة وأثرت قليلا في رأسي، فظن المعلون أن خصمه قد قتل، فلوي عنان فرسه، فاستيقظ المقداد وتبعه فساق جواده المتقدم ذكره وأحاط به أصحابه.

قال: فبينما الناس في أشد القتل إذ أقبل الأمير خالد بن الوليد رضي الله عنه ومعه الأمراء المتقدم ذكرهم وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة علي البشير النذير وفي أوائل القوم خالد وهو ينشد ويقول:

علي الله صبا للقاء جاء يسرع	وصبا علي الفرسان بالرمح يقرع
ومن باع لله المهيمن نفسه	وكان إلي الهيجاء بالأمر أطوع
فويلك يا بطليموس من سيف خالد	إذا اشتدت الهيجاء الحرب يرفع
فلاحم الرحمن بطليموس كافرا	ويلعنه كل الملائك أجمع
فان قدر الملوي سأخرب داره	وأتركها من بعده وهي بلقع
بحد يماني إذا ما جذبته	تذل له كل العداة وتخضع

(قال الراوي) ثم إن خالدا رضي الله عنه حمل بمن معه واقتتلوا قتالا شديدا وقاتل البطليموس لعنه الله قتالا شديدا، وقتل رجالا وجندل أبطالا، فعندها حملت الأمراء وأصحاب الرايات وذوو المروءات اقتتلوا بين الجبل والباب قريب التل الأحمر قتالا شديدا، وعطف خالد علي البطليموس وصال عليه، وكلما مر إلي الميسرة يراوغه إلي الميمنة ومن الميمنة إلي الميسرة، فعندها عطف خالد وحازه بين الصفوف وحمل عليه، فعندها فر إلي القلب وأحاط به أصحابه وقومه ووضعت الأمراء السيوف فيهم وتبعه الأمير خالد وساق جواده إلي الباب واقتحمه، وتبعه قومه وانهزموا إلي الباب ودخلوه وتبعهم المسلمون واقتتلوا عند الباب وقتل من الروم نحو أربعة ودخلوا الباب وأغلقوه وأوثقوه بالأقفال وعلوا علي الأسوار، وأسر المسلمون نحو ألفاً وخمسمائة فعرضوهم علي الأمير خالد، وكان فيهم من كبار البطارقة فعرض عليهم الإسلام، فامتنعوا فأمر بضرب رقابهم وافتقد المسلمون أصحابهم، فإذا قد قتل منهم مائتان وثمانون رجلا ختم الله لهم بالشهادة.

(قال الواقدي) هذا ما جري لهؤلاء، وأما عدو الله البطليموس، فإنه حمل هما وحصل له مالا ينبغي شرحه، وأمر بجمع البطارقة، فلما اجتمعوا شكا لهم أمر العرب وما لقوا من الحرب، وقال لهم: فما الرأي عندكم فقالوا: كلنا بين يديك فإذا أمرتنا بالقتال قاتلنا علي سور بلدنا، قال: سأدبر لكم أمرا وهو تدبير من خاض الحروب وعرفها، ثم أمر باجتماع الناس خاصتهم و عامتهم، فاجتمعوا إليه إلا من بقي علي الأبواب خوفا من المسلمين فلما تكاملوا واجتمعوا قال: إني عزمت أن أهجم علي القوم في هذه الليلة و أكبسهم في أماكنهم والليل مدلهم، أنتم أعرف بمسالك البلد من غيركم، فلا يبقي منكم أحد ألا ويتأهب ويخرج معي من بابه ونكبس القوم، وأخرج أنا بنفسي ومن معي من باب توما وأرجو وصولي إلي مسرتي وإلا أموت بحسرتي وأبيدهم أولا بأول لعلي أن أصل إلي أميرهم فآخذه أسيرا وأبلغ مقصدي.

قالوا: حبا وكرامة، ثم بعث فرقة إلي باب الجبل وفرقة إلي باب قندوس وفرقة إلي الباب الشرقي، وانتدب معه سادات قومه ومن عرف بالشجاعة وأخذهم معه، ثم أقبل علي القوم قبل انصرافهم وقال سآمر صاحب الناقوس أن يخفق لكم الناقوس خفقة عند خروجي من الباب فتخرجون جميعا فامتثلوا ما أمرهم به وقاموا ينتظرون الإشارة، وأما صاحب الناقوس فاحتمله كالسلاهب وخرج البطليموس في عشرين ألف فارس من الشجعان وهو يوصيهم وقال أسرعوا في مشيكم فإذا وصلتم ألي القوم فاحملوا عليهم ومكنوا السيوف والخناجر من رقابهم، ومن صاح الأمان فلا تبقوا عليه إلا أن يكون أمير القوم، ومن أبصر منكم الصليب الذي أخذ منا فليأخذه ومن أتي به أكرمته.

ثم أمر صاحب الناقوس أن يضربه فضربه ضربه سمعها أهل الأبواب ففتح البوابون وتبادروا للخروج، وخرج اللعين وسمع المسلمون الصوت، فثاروا كالأسود الضارية المشتاقة إلي فرائسها، فلم تصل القوم إليهم وإلا وهم علي حذر إلا أنهم غير مرتبين، فتجاول القوم في ظلال الليل وسمع الأمير خالد ذلك منهم فصاح واغوثوا وامحمدا وإسلاماه كيد قومي ورب الكعبة اللهم انظر إليهم بعينك التي لا تنام

وانصرهم علي عدوهم ولا تسلمهم إلي شر خلقك، ثم سار خالد وهو مكشوف الرأس بلا خوذة، وألهته الزعقة عن لبس السلاح وسار إلي قومه وهو ينشد ويقول:

فاض دمعي واعتراني حزني ... ضاق صدري وبراني شجني

رب ســـلم من نزول المحن ... وانـــصر الإسلام ياذا المنن

بـــالنبي الهـــاشمي العدني ... أحـــمد المختار طه المدني

(قال الراوي) ثم وصل إلي باب توما ومعه خمسمائة من السادات وأصحاب النجدة مثل الفضل بن العباس والفضل بن أبي لهب وزياد بن أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب والمقداد بن الأسود وزيد بن ثابت وعبد الله بن زيد ومـــسلم ابـــن عقيل وأبي ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وبحر بن مسلم وعقبة بن نافـــع والمغيرة بن شعبة والمسيب بن نجيبة الفزاري رضي الله عنه وعلت أصوات المـــسلمين بالتهلـــيل والتكبير والقوم من أعلي الأسوار قد رطنوا بلغتهم وتصارخوا عـــندما استيقظ المسلمون وحمل خالد علي القوم ونادي: يا مسلمون أتاكم الغوث من رب العالمـــين، أنـــا الفارس الصنديد والبطل المجيد، أنا خالد بن الوليد، ثم حمل في وسط الروم بمن معه فقتل رجالا، وجندل أبطالا وهو مع ذلك مشتغل القلب بالأمير عياض وبقية الأمراء الذين علي الأبواب وهو يسمع صراخهم وزعقاتهم.

(قال الواقدي) حدثنا عبد الله بن عون قال حدثنا جابر بن سنان عن عقبة بن عامر قال: كان الروم والنصارى من أعلي السور يرمون بالحجارة والسهام، ولقيت المسلمون من عدو الله البطليموس أمرا عظيما لم يروا قبله مثله وكان أول من وصل إلـــيه البطلـــيموس لعـــنه الله فـــصبرت لـــه المسلمون صبر الكرام وقاتل عدو الله البطليموس قتالا شديدا، وقال أروني الذي أخذ صليبي بالأمس.

فلمـــا ســـمع الفـــضل بـــن العباس صوته قصد جهته، وقال ها أنا صاحبك وغـــريمك أنـــا مبـــيد جمعكم وآخذ صليبكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ فعطف عليه البطلـــيموس عطفة الأسد علي فريسته وقال إياك طلبت ثم انفرد له وصادمه فلم تر الـــناس في طول الأيام ضربا كضربهما في تلك الليلة ورأي الفضل منه شيئا لم يره في طول عمره ولم يزالا كذلك إلي أن مضي من الليل شطره ولم يزالا في كر وفر

وضـــربه الفضل ضربة فتلقاها في حجفته فانقطع سيف الفضل وطمع فيه عدو الله وظـــن أنـــه يأخـــذه أسيرا وإذا بفارسين قد أقبلا ومن ورائهما كتيبة من الفرسان قد هجمـــوا علي الروم وإذا بخولة بنت الأزور أخت ضرار قد حملت علي فارسان من الـــروم فجندلـــتهما وهـــي تجندل في الأبطال وفرسانهم فلحقها فارسان أحدهما عبد الرحمن بن أبي بكر والثاني عبد الله بن جعفر وتبعهما ثلاثة وهم أبان بن عثمان بن عفان فخلصوا خولة بعد أن أحاطت الروم بها وعطفوا علي عدو الله البطليموس فكر راجعـــا فـــي كـــردوس من الروم حتى دخل مدينة البهنسا وقاتلت الروم من أعلي الأسوار قتالا شديدا، وكان خالد رضي الله عنه تارة يكر عند باب الجبل وتارة عند باب توما وتارة عند باب قندوس.

وكـــان عـــياض بـــن غانم الأشعري. عند باب الجبل يري ذلك القتال فلبس ســـلاحه ودنـــا مـــن القـــوم بمن معه من الأمراء مثل المقداد وضرار بن الأزور وشـــرحبيل ومـــسلم وعقـــيل وزياد وعبد الله بن العباس وعمر بن أبي ذئب وعبد الـــرحمن بـــن أبـــي هريرة والمسيب والحرث ابن مسلم وزيد بن الحرث وأبي ذر الغفاري ومحمد بن مسلمة رضي الله عنه فعطفوا نحو الباب وكبروا وكبر القوم من ورائهم فخرج إليهم بطريق عظيم ومعه عشرة آلاف فارس وكان اسم البطريق يوحنا فاقتتلوا قتالا شديدا فتكاثر الروم علي عبد الله بن عبادة بن الصامت فقاتل قتالا شديدا ورمـــي بحجر من أعلي الباب فقتله وقتل من الأمراء وفرسان المسلمين عند الباب زهـــاء مـــن مائتـــين وقتل من الروم نحو ألف وحمل عياض والأمراء والتقي القوم فصارت الأحجار والسهام تتساقط عليهم وهم لا يولون عنهم.

فلمـــا ألجـــئوهم إلي الباب واختلطوا بهم خشيت الروم أن يصيبوا أصحابهم بـــسهامهم وحجارتهم فأمسكوا أيديهم وقتل من الروم مقتلة عظيمة، وأما خالد فقاتل قـــتالا شديدا ما رؤى مثله فبينما الناس كذلك إذ أقبل ضرار بن الأزور وهو ملطخ بالدماء وهو جامد عليه كأكباد الإبل. فقال له خالد ما وراءك من الأخبار يا ضرار؟ فقـــال أخبرك يا أبا سليمان أني قتلت في ليلتي هذه مائة وستين رجلا وقتل قومي ما لا يعد وقد كفيتكم من خرج من باب الجبل.

(قـــال الـــراوي) وكانت ليلة لم ير الناس مثلها وهجم الأمير عياض هو و أصحابه علي من يدخل الباب واقتتلوا قتالا شديدا ووصلوا إلي ساباط الباب، وكان له بـــاب آخـــر فأغلق من دونهم علي كردوس من الروم فقتلوا هناك وتسلق المسلمون علي البرج وقتلوا من فيه وكانوا خمسمائة وقتل في تلك الليلة هناك نحو ألف. وأما بـــاب قـــندوس فكان عليه الزبير ابن العوام وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو بن العـــاص والفـــضل بـــن أبي لهب والمغيرة وجماعة من الأمراء فتواثبوا إلي الباب واقتتلوا قتالا شديدا وقتل من المسلمين نحو مائة وعشرين رجلا غير الأعيان، وأما باب توما فكان عليه خالد وخرج منه البطليموس فاقتتل الفريقان وقتل من المسلمين جماعـــة نحـــو مائتين وثمانين رجلا في المكان المعروف بالمراغة وغلقوا الأبواب واستعدوا للحصار وهذا كان أول فتح.

(قـــال الواقدي) حدثنا سنان بن مفرج العجلاني عن أبي محمد الشاكري عن زيد ابن رافع عن أبي أمامة قال: وأقام خالد بعد الوقعة علي البهنسا أربعة أشهر لا يقاتلهم ولا يناوشهم فطال عليهم المكث وضجروا فأتوا إلي خالد وشاوروه في القتال فـــأذن لهـــم وكـــان جملة من قال في وقعة الأبواب نحو ستمائة فارس ختم الله لهم بالشهادة.

(قال الراوي) فلما استأذنت الصحابة خالدا في القتال لم يقدر أن يمنعهم ولما أصـــبحوا اقتـــتلوا قتالا شديدا لم يسمع مثله فاشتد الحصار. فقال أهل البهنسا وقالوا للبطليموس ما بقي لنا صبر علي القتال والحصار. فقال لهم اصبروا واثبتوا لعلي أن أكـــيد العرب بمكيدة، ولما اشتد الحصار عليهم أتوا إلي بطريق يسمي توما صاحب الـــباب وأتاه السوقة والنصارى والعوام وقالوا له لقد ضاق علينا الحصار فنجعل لك مـــالا وافـــتح لنا الباب حتى نأخذ لنا أمانا من العرب فأجابهم إلي ذلك فصبرهم إلي جانب من الليل وفتح لهم الباب فمضي نحو مائتين من تجار البلد وخرجوا من باب الـــسر وأتـــوا إلي خالد وصالحوه علي أن يفتحوا لهم الباب وجعلوا للمسلمين جعلا معلوما واتفقوا علي ذلك وكتبوا أسماءهم ورجعوا.

هذا ما جري لهؤلاء وكان الكلب ابن عم توما حاضرا واسمه أرمياء فمضي إلي البطليموس وأعلمه بذلك فعندها أرسل البطليموس بطريقا يقال له حرفائيل ومعه ألف بطريق وقال اكمنوا وأتوني بالخبر علي جليته فمضوا وتفرقوا وهم مشاة قريبا من باب توما إذا بهم قد أقبلوا، فلما رأوهم عرفوهم وفتحوا لهم الباب فدخلوا فعندها تواثبوا عليهم و أمسكوهم وسحبوهم إلي البطليموس لعنه الله، فلما رآهم وبخهم توبيخا عظيما، وقال ائتوني بالسياط ونصب أخدودا من حديد، ثم ضربهم ضربا شديدا وأتي بالنار وأحرق جميع أموالهم وأمر بالخشب وصلبهم علي أعلي السور وأقاموا هناك يوما وليلة، ثم أمر بضرب رقابهم وطرح رؤوسهم للمسلمين.

قال الأمير عياض للأمير خالد هؤلاء ذمتنا، وقد قتلهم البطليموس لعنه الله.

(قال الراوي) أما الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه قلق علي المسلمين قلقا شديدا فأرسل كتابا إلي عمرو بن العاص يقول فيه: ما سبب انقطاع كتبك عني وأنا في قلق علي المسلمين وعلي خالد ومن معه؟ واعلم أنك لا ترسل لي إلا بالفتح والغنائم وإن احتاج خالد إلي نجدة فأرسل إلي أبي عبيدة، فقد كاتبته بأن يرسل له جنودا من الشام والسلام، فلما وصل الكتاب إلي عمرو وأرسله إلي خالد.

فقال خالد: لا نطلب النجدة والمعونة إلا من الله تعالي، ثم إن خالدا عظم عليه الأمر واشتد الحصار وكان كل يوم يرجع إلي المدينة ويقاتل قتالا شديدا وفقد من المسلمين جماعة كثيرة قتلوا بالحجارة والنشاب وهجم عدو الله علي المسلمين وكادهم مرارا وقال خالد للأمير عياض وللمسلمين لا شك أن لأصحابنا عيونا وجواسيس، ثم أن خالدا ركب ومعه الفضل بن العباس والمقداد وزياد بن أبي سفيان وعياض وطافوا حول العسكر وإذا برجل من العرب المتنصرة جالس علي قطيفة خارج العسكر فأنكر أمره خالد وقال له من أي العرب أنت؟ فسكت. فقال له الأمير عياض انطق بالحق من لك من الأهل ههنا؟ فسكت.

فقال له: خذ الماء وتوضأ فلم يحسن ذلك فقال له صل فلم يحسن ذلك فضربوه فأقر بأنهم خرجوا ثلثمائة من باب السر وردوا وبقي هو فضرب عنقه وانقطعت الجواسيس فكانوا يقاتلون قتالا شديدا وكان لخالد عبد في خيمته اسمه فلاح

يــصنع له كل يوم قرصين من شعير واحد له وواحد للعبد فقعد خالد ثلاثة أيام يأتي الــسفرة فلا يجد فيها شيئا ولم يكلم العبد، وكان عنده بعض تمر يتقوت به حتى فرغ فعــندها قــال خالــد للعبد: يا وليد قال الله تعالي **﴿وما جعلناكم جسدا لا يأكلون الطعام﴾**[1] ولك ثلاثة أيام لم تصنع فيها قرص شعير.

قال : يا سيدي ما قطعت عنك ذلك ولكن أصنع لك كل يوم وأعلقه في طبق الخيمة فلم أجده.

قــال خالد: إن لهذا شأنا عظيما، ثم قال للعبد قف خلف الخيمة وأخف نفسك وانظــر مــا يفعل هذا، فلما كان الغد ركب خالد للقتال وصنع العبد القرصين وأكل قرصا ووضع قرص سيده فكان معتاد أن يشيله له، فجاء كلب أسود عظيم من جهة الــبلد ودخــل الخيمة وأخذ القرص في فمه ومضي فتبعه العبد حتى أتي إلي سرب يخــرج مــنه الماء يجري من البحر تحت الأرض إلي تحت سور المدينة من جهة القــبلة ويــدخل المديــنة ويظهر من الجهة البحرية من خارج البلد، فلما رآه العبد ورجع وأعلم الأمير خالدا فمضي معه ورأي ذلك ففرح بذلك فرحاً شديداً ثم أتي إلي الأمــراء وأعلمهم بذلك وقال لهم أريد منكم مائة رجل قد باعوا أنفسهم لله عز وجل فيمضون معي وجماعة شداد يكونون مقابل الباب.

فــإذا فتحنا الأبواب دخلوا إلينا فانتدب منهم مائة رجل من خيار القوم منهم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وزيد بن ثابت وعقبة بن عامر ومسلم بن عقــيل وزيــاد بــن أبي سفيان وأخوه هبار والمسيب بن نجيبة وأخوه و المقداد بن الأســود ورافع وأبو رزين العقيلي ومثل هؤلاء السادات، وقد اقتصرنا في أسمائهم خوف الإطالة ورتب خالد رضي الله عنه عبد الله بن جعفر والزبير بن العوام وابنه عــبد الله والفضل بن العباس والفضل بن أبي لهب وضرار بن الأزور ومثل هؤلاء مقابــل الــباب وصبروا إلي غروب الشمس وأتوا إلي ذلك السرب ودخلوا إليه في المـــاء كل واحد بسراويله وسيفه وكان أولهم الأمير خالد، وكان من دخل يدع سيفه

---

(١) سورة الأنبياء :الآية ٨.

وحجفته مع صاحبه حتى يدخل ويأخذهما حتى دخل ثمانون رجلا ورجع عشرون لم يسعهم السرب وضاق عليهم فولوا وهم متأسفون لما فاتهم من الشهادة والفتح، وتواثبت الأمراء المذكورون وأخفوا نفوسهم تحت الجدار إلي جزء من الليل فتبادروا إلي الباب فوجدوه موثقا من داخله فعالجوا الأقفال والروم سكاري ففتحوا الباب وذبحوا كل من وجدوه في دهليز الباب وكانوا ستين رجلا، ثم علوا علي السور جماعة منهم أخذوا المفاتيح ففتحوا الباب وثاروا علي الروم فقتلوا جماعة منهم في أعلي البرج وقتلوا بطريق البرج وأعلنوا بالتهليل والتكبير الصلاة علي البشير النذير.

فأجابهم المسلمون بمثل ذلك ودخلوا من الباب إلي سوق المدينة وتبادرت جماعة إلي القصر، فلما أحس عدو الله بذلك وأن المسلمين ملكوا عليه الأبواب وضع منديلا في عنقه وخرج وهو يقول: الأمان الأمان وفعل جماعة كذلك فأبي خالد وضع السيف فيهم وقاده أسيرا وقال له يا عدو الله لا أمان لك عندي إلا أن تسلم وقبض جماعة من بطارقته ووضع السيف فيهم وقتل من الروم نحو ثلاثة آلاف وقتل من المسلمين في تلك الليلة في وسط البلد مائة وأربعة وثمانون رجلا قريبا من سوق المدينة وعند الأبواب وعند القصر وجاء عياض ومعه جماعة من الأمراء فشكا إليهم أهل البلد، وقالوا الأمان فرق لهم الأمير عياض وصار عدو الله يتملق بين أيديهم فغلبوا علي رأي خالد حتى صالحهم علي ألف وسق من البر والشعير والجزية من العام القابل، وخالد لا يطمئن قلبه إلي شيء من ذلك وغلب الأمراء علي رأيه وجاءوه وقالوا له لقد أضر بنا المقام بهذا البلد، فما نراك إلا أشفق منا علينا ونري من الرأي أن ترسل إلي عمرو وتعلمه بذلك وهذا الكلب وجماعته موثقون إلي أن يجيء الجواب فعندها كتب خالد كتابا إلي عمرو يخبره بذلك.

فلما بلغه ذلك رد لهم الجواب أنهم يستوثقون منه بالأيمان ويأخذون منه ما صالحهم عليه ويتركونه، ومن صاح الغوث فاتركوه وإلا نفر منكم أهل الصعيد ففعل خالد وقلبه نافر وأطلقهم بعد ما استوثق منهم بالإيمان في كتبهم المذكورة وأطلقوه وشرط عليهم أن لا ينزل عندهم أحد إلا من يقبض المال فخرجوا إلي ظاهر المدينة

وبقــي عنده فضالة بن زيد السلمي وعون بن ساعدة الكندي ومقوم بن سعيد الجهني ومائــتان من أصحاب رسول الله ﷺ وأخرج الميرة والعلوفة وصار كل يوم يركب ويــتودد إلي الأمراء ووهب وأعطي ولم يترك أميرا إلا خادعه حتى طابت نفوسهم علــيه إلا خالــدا والفــضل بن العباس والمقداد وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والزبير بن العوام فإنهم لم تطب نفوسهم إليه وأقاموا شهرين علي ذلك وأرسل جميع الغــلال إلي خزينته في هذا الزمن وخزن ما يحتاج إليه واستدعي بكبار قومه ومن يــثق به واتفق رأيهم علي قتل المسلمين والغدر بأصحاب رسول الله ﷺ وصبروا إلــي أن مضي جزء من الليل وهجم علي المسلمين علي حين غفلة في ألف بطريق وأوثقهــم كــتافا وجعل في أفواههم الاكر وفتح الأبواب وأدخلهم المدينة وهجم علي المــسلمين ووضع السيف فيهم وهم رقود فما انتبهوا إلا والسيف يقطع في نحورهم وكانت وقعة عظيمة وثار خالد بمن معه، وكان الزبير راقدا فسمع الصياح.

فقــال: دهينا ورب الكعبة ثم ركب وركبت معه زوجته وقاتلت النساء قتالا شــديدا وعــدو الله تارة يكر ميمنة وتارة يكر ميسرة والسيف يعمل والرجال تقتل، وكانت ليلة شديدة وصار خالد يقول:

يــا قوم أما قلت لكم فما سمعتم لخالد والتجأ زياد بن أبي سفيان وأخوه هبار وميــسرة ابــن مــسروق وفضالة بن عبد شمس وعقيب بن يعقوب وعبادة بن تميم وجــندية الكلبي إلي تل هناك وأحاط بهم طائفة من الروم من كل مكان فقاتلوا قتالا شديدا وانحدر زياد رضي الله عنه من التل وتبعه أصحابه فأحدقت بهم الروم وداروا بهم كدوران السور بالمعصم وقتلوا زيادا وجميع من ذكرنا من الأمراء وقاتلت نسيبة الأنصارية أم أبان وأسماء ابنة أبى بكر ونعمانة ابنة المنذر ونظائرهن في تلك الليلة قــتالا شديدا وقتل جماعة من المسلمين وأتي خالد وحمل عليهم وجعل يقلب الميمنة علي الميسرة والميسرة علي الميمنة قال وأطبق عليهم هو وجميع الأمراء فهزموهم إلي الأبواب وقد قتلوا منهم مقتلة عظيمة وهرب عدو الله وتحصن هو وقومه وغلقوا الأبواب.

ولمـــا أصبح أمر بالحصار وأمر بإحضار المأسورين وصعد بهم إلي أعلي البـــرج وضـــرب رقـــابهم فشق ذلك علي المسلمين وصعب عليهم ما فعل عدو الله بأصـــحابهم وأتي خالد رضي الله عنه ومعه بقية الأمراء إلي مكان المعركة فوجدوا الـــشهداء مطـــروحين ووجـــدوا زيـــادا رضي الله عنه وفيه عشرون طعنه بالرمح وأربعـــون ضربة بالسيف وإلي جانبه أخوه هبار وفي رأسه عشرون ضربة بالسيف وواحـــدة فـــي فخـــذه قطعته فبكي خالد عليهم بكاء شديدا وبكي عليهم سائر الأمراء وأبطال المسلمين ونعاهم الأمير خالد بهذه الأبيات وهي له خصوصا:

هوام دموعي كالسحائب تهمع	وقـــلبي مـــن فقـــد الأحبة يفزع
وأظلمت الدنيا علي نور عبرتي	وكـــاد فـؤادي بـــالجوي يتقطـــع
لفقـــد زياد أحرق البين مهجتي	وغـــاب صوابي وهو في الأرض يصرع
لقد كان في بحر المعامع صائلا	يزلـــزل أركـــان العـــدا ويضعضع
وقـــد كان مقدام الفوارس كلها	بكل مـــكـــان للإعـــادي مقمـــع
لحي الله يومـــا فيه حانت وفاته	وأجفانـــه مـــع أسهـــم الدمع تدمع
أيـــا سيدا من آل هاشم لم يزل	له رتبة بالـــمجد والجـــود ترفـــع
يـــعز عـــلينا أن نراك معفرا	ورأسك مـــن فوق الجنـــادل تسفـــع
بـــجانبك الهبـــار أضحي مهبرا	طريحا عـــلي رأس الثري وهـــو مطبع
ألا لعن الرحمن البطليموس قومه	ألعنه مع كـــل قـــوم تجمـــع
لقد غدا الســـادات من آل هاشم	نجومـــا وأقمـــارا عـــلي الناس تطلع

(قـــال الراوي) ثم بكي المسلمون بكاء شديدا علي من قتل منهم من الأمراء والأبطال وجمعوهم وصلوا عليهم وواروهم في حفرهم إلي جانب التل فإذا هم ثمانون أميرا وثلثمائة رجلا ختم الله لهم بالشهادة.

(قـــال الـــراوي) وأقـــام المسلمون ثلاث سنين إلا أنهم يشنون الغارات علي السواد والسواحل ومضي القعقاع بن عمرو وهاشم وأبو أيوب وعقبة بن نافع الفهري بألفي فارس وأغاروا علي حد برقة ثم عادوا وهذا أحد الآراء في فتح المغرب.

قـال رضي الله عنه: ولما طال الحصار والمكث علي أهل البهنسا اجتمعت المسلمون عند خالد واستشاروه فيما يفعلونه وماذا يكون من الرأي فوثب عبد الرزاق الأنـصاري وعبد الله ابن مازن الداري وكعب بن نائل السلمي وأبو مسعود البدري وأبو سعيد البياضي وقالوا يا قوم قد وهبنا أنفسنا لله عز وجل ولعل أن يكون للإسلام فـرج فاصنعوا منجنيقا واملئوا غرائر قطنا وقالوا يأخذ كل واحد منا سيفه وحجفته ويـدخل فـي غـرارة قطن فإذا كان الليل ونامت الحراس فألقونا علي أعلي السور واحدا بعد واحد والمعونة من الله في فتح الباب كما فتحتم قصر الشمع بمصر ودير النحاس وكما فعلتم مع رسول الله ﷺ.

قـال: فاستـصوبوا رأيهم، فلما أصبحوا قطعوا الأخشاب وصنعوا منجنيقا وصنعوا له حبالا وأحضروا غرائر وملئوها قطنا والرجال داخلها وصبروا إلي الليل ودخل السادات رضي الله عنهم بعد أن ضربوا بالمنجنيق حجرا بعد حجر فسقط علي أعلي السور والبرج فشرعوا في رميهم منهم أو مسعود البدري وعبد الرزاق إلي أن رموهم جميعهم وصاروا فوق أعلي السور ورتب خالد أصحابه علي الأبواب، وأما عبد الرزاق وأصحابه فلما صاروا بأعلى الجدار نزلوا إلي البرج.

فإذا هو مغلق والحراس نيام فنزلوا إلي الدهليز بين البابين فوجدوهما مغلقين موثقـين فذبحوا البوابين عن آخرهم ووجدوا المفاتيح تحت رأس كبيرهم في جانب سـريره فأخذوها وفتحوا الأبواب وإذا بالباب الثاني الذي ينتهي إلي القصر مسدود بالحجارة، فاحتالوا علي قلع حجر بعد حجر فقلعوها ورموا الأحجار وفتحوا الأبواب وكـل ذلـك فـي أقل من ساعة بمعونة الله عز وجل، وصعدوا إلي البرج فعالجوه وفـتحوه وقتلوا جماعة واستيقظ جماعة وثاروا عليهم، وخافوا علي الباب أن يؤخذ مـنهم وأن يحال بينهم وبينه وهو باب السور الذي بظاهر المدينة ففتحوه، وصاحت الروم واستيقظ البطليموس وركب جواده وكان علي حذر، وركب المسلمون ودخلوا الباب وخرجت البطارقة والبطليموس من قصره وزحفت الروم إلي الباب، وكان أول

مـــن قـــتل في ذلك اليوم عبد الرزاق وعنان بن مازن وكعب بن نائل السلمي بداخل الباب.

قـــال: حدثـــنا قيس بن مازن الحميري عن عبادة بن سالم السكاكي عن أبي مسعود البدري، وكان أول من فتح الباب. قال ليس هو علي هذه الصفة وأخبرنا سالم بـــن حامد عن أبي عبد الله عن أبي محمد الأنصاري عن عبد الله البدري، قال: كان أبـــو محمد الحسني يقرأ هذه الفتوح بالجامع الغزي العمري علي الشيخ أبي عبد الله حتي بلغ إلي هنا وذكر الفتوح وفتح الباب وإن الرجال وضعت في الغرائر.

قـــال: يا بني ليس الأمر كذلك، فقد روي عن أبي مسعود وهو الصحيح عن فتح الباب.

قـــال: أنهـــم قطعـــوا أخشابا ونصبوا سلما للتسلق عاليا علوا جدار المدينة وصـــبروا إلـــي اللـــيل وأسندوه إلي جدار وتسلق منهم أربعون رجلا ومنهم السبعة المذكـــورون وفتحوا الباب كما ذكرنا واستيقظ الروم وخرجوا إليهم بعد فتح الباب. فكـــان الـــسابق إلـــيهم عبد الرزاق رضي الله عنه فقتلوه وقتلوا معه من ذكرنا أولا وتـــسابق المسلمون إلي الباب، فكان أول من دخل ضرار بن الأزور وهو يقول هذه الأبيات:

الـــجن تفزع يـــوم الحرب من فزعي	إذا أتيـــت إلي الهيجاء بلا جزع
يـــا ويل مـــن صنع الأرصاد يخدعنا	ونحن جـــرثومة الأمكار والخدع
لأرضيـــــن الـــــهي في جهـــــادهم	وقتل أبـــــطالهم بالسيف والدرع
يا ويل كلب العدا البطليموس أن وقعت	عيني عليـــــه لارديه إلي النزع
عيب علي إذا مـــــــــا ألتقيه هنـــا	وأفلق الـــرأس منه غير مرتدع

ثم دخل من بعده خالد وهو يقول:

اليوم يوم الوفـــا والطعن بالأســـل	والضرب بالقضب في الهامات والقلل
يا ويل بطليموس كلب البهنساء إذا	لقيته بـــــطليق الحـــــــد مـــــعتدل
إن لم أذقه بكاســـات المنون هـــنا	فـــــلا سلمـــــت ولا بلغت من أملي

قال: ثم دخل من بعده ذو الكلاع الحميري وهو يقول:

إني لمن حمير العالين في النسب أهـــل الثنا والوفا والجود والحسب
أســـد غضافره سود جحاجحة نردي الكماة غدا في الحرب بالقضب
الحـــرب عادتنا والطعن همتنا وذو الكـــــلاع أنا عال علي الرتب
تبت يـــد الروم ما يدرون أن لنا صوارما تتـــرك الأعضاء كالقصب

قال: ثم دخل من بعده الزبير بن العوام وهو يقول:

أيـــا بطليمـــوس يا كلبا لعينا ويا نسل الطغاة إلا رذلينا
أتتك حماة ديـــــن الله حقا وأولاد الجياد الخيـــرينا
خيار الناس نسل بني نـــزار كراما في الأعادي قاطعينا
إذا احتبك العجاج بهم تراهم بحولك كالسباع الضاربينا
ولا منهم جبان قـــط يهـــزم ولا نـــــذل فتلقاه حزينا
وليس تري سوي مقدام قوم أثار الحرب صنديدا أمينا

قال: ثم دخل من بعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وهو يقول:

أتينــــــا البهنسا بكل قرم شـــديد العزم في يوم النزال
وجيش فاق في الأفاق طرا علي الأعداء بالسمر العوالي

قال: ثم دخل من بعده عبد الله بن جعفر وهو يقول:

اليوم طاب الطعن في اللئام والضرب في الأعناق بالحسام
وأنصر الإسلام باهتمـــــام ولم أزل عــــن سادتي أحامي
أنا الشجاع الفارس الهمـــام ومـــــردي الأعداء في الحمام

قال: ثم دخل من بعده الفضل بن العباس وهو يقول:

ألا أننا الســـادات من آل هاشم ليوثـــا ذري بطش شديد العزائم
لنا تشهد الأبطال في كل معرك وتذكـــــر عنا أهل كل المواسم
إذا اشتدت الأهوال واستبق القنا رأيت لنا في ذاك فعل الضراغم

قال: ثم دخل من بعده الفضل بن أبي لهب وهو يقول:

لنحوك يا بطليموس عزمي قد طلب بحـــد حسام كالشهاب إذا انتدب
يطـــــير شرار النار من لمعانه بكف شجاع الخيل ابن أبي لهب

فويلك يـــا ملعون منه إذا سطا بصارمـــه يوم العجاج وإن وثب

قال: ثم دخل من بعده عياض بن غانم الأشعري وهو يقول:

لا أنثني يـــوم الهيـــج عن العدا بمهنــــدي الصمصام إلا إذ قطع

فالويل للبطليموس مـــــن سطواتنا لآفـــرقن بحـــد سيفي ما جمع

قال: ثم دخل من بعده المقداد ابن الأسود وهو يقول:

أنـــا الكـــندي كالليث الشجاع وإني في المـــــدا قد طال باعي

وتشهـــد لي الرجال بكل حرب وللهيجاء منقـــاد الطــــباع

فوار ثـــــارات عبد الله أني غليه ذاهل خـــيران نـــاعي

قال: ثم دخل من بعده أبان بن عثمان وهو يقول:

نحن الليوث ذوو المعروف والكرم وفي المعامع يوم الحرب والهمم

مجندلون العــــدا في كل معترك وقـــاهرون لهم في كل مصطدم

لا يعجبنك يا بطلـــيموس جيشك في هـــذا المقام فمنا الكل كالرخم

قال: ثم دخل من بعده مسلم بن عقيل، وهو يقول:

ضناني الحرب والسهر الطويل وأقـــقني التسهـــد والعـــويل

فـــور اثارات جعفر من علي وما أبدي جوابك يـــــا عقيل

ســـأقتل بالمـــــهند كل كلب عسي في الحرب أن يشفي الغليل

قـــال: ثـــم دخل من بعده شرحبيل بن حسنة ثم القعقاع بن عمرو التميمي، ثم مالك الأشـــتر ثم عبادة بن الصامت ثم أبو ذر الغفاري ثم أبو هريرة الدوسي ثم ابنه عبد الرحمن ثم معاذ بن جبل ثم شداد بن أوس ثم قيس بن هبيرة ثم أبو دجانة الأنصاري ثـــم جابـــر بن عبد الله ثم البراء بن عازب ثم النعمان بن بشير ثم سعيد بن زيد أحد العشرة الكرام رضي الله عنهم. قال ثم الأنصاري يتلو بعضهم بعضا بهمم وعزائم.

قـــال: ثـــم خرج الروم وقاتلت قتالا شديدا وتواثبت جماعة من الأمراء مثل الزبيـــر بـــن العوام وابنه عبد الله وعبد الرحمن بن أبي بكر إلي باب البحر واقتتلوا قتالا شديدا وتقدم عبد الرحمن والزبير إلي الباب والروم علي أعلي السور ونزل عن جـــواده وصـــلي ركعتـــين والحجارة تتساقط عليه وهو لا ينزعج لذلك، وتقدم هو

والفضل وعبد الرحمن بن أبي بكر إلي الباب وجعلوا السلاسل من فوق وصعدوا إلي أعلـــي البرج وهدموا الشرافات ووضعوا السيف في الحراس، وفتحوا الباب ووثب شـــرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس وأبو ذر الغفاري وأبو أيوب الأنصاري إلي باب قندوس ووثب المسيب بن نجيبة الفزاري والقعقاع بن عمرو والأمير عباض بن غانم الأشعري إلي باب الجبل وفتحوا الأبواب واقتتلوا قتالا شديدا وقاتلت الروم قتال المــوت إلي أن طلعت الشمس وارتفعت، وقاتل عدو الله البطليوس قتالا شديدا وقتل رجـــالا وجـــندل أبطالا واقتتلوا في الأزقة والشوارع وبين الأبواب وتقدم خالد وهو يـــصيح واشـــارات سليمان وطعنه طعنة صادقة فأطلع السنان يلمع من ظهره فوقع يخور في دمه وعجل الله بروحه إلي النار وبئس القرار.

فلمـــا رأي الروم ذلك ولوا لأدبار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وقتل من الروم نحو ثلاثين ألفا بوسط البلد وأسر منهم عشرون ألفا، وأنشد خالد يقول:

وبـــــالبهنسا الغرا أبيدت جيوشنا	ثــــــــلاث سنين بابها ليس يفتح
ثمـــــاني آلاف هــــــداد جيوشنا	وكــــــل همام عن ثمانين يرجح
فمـــا فتحت إلا وقد صار جيشنا	ثـــلاثة آلاف عـــــداد تسحسح
ولم أر في أرض الصليب كلمثلها	ولا جيشها لما علي السور يسرح
ولا مـــــر لي يوم كمثل حروبها	لأن بــــــها البطليموس ليث مبجح
وكـــــان لـــه جيش وعدة جيشه	ثمانون ألفـــــا بالحديد توشحوا
وكنـــــا غلبناهم ثمانين مـــــرة	يخادعنا البطليموس عــنهم فنصفح
ثـــــــلاث مرار نحن نفتح بابها	وتـــريد للكفــر الذمــيم وتجنح
ولقـــــــد لعب الهندي يوم فتوحها	وكــــلت أيادينا وفي الروم نذبح
ثلاثـــــــون ألفا قد محتها سيوفنا	وأكـــــبادنا من حرها النار تقدح
إلي أن ملأنــــــا البر والبحر منهم	وقـــــد شبعت أسد الفلا وترنحوا
وولـــــت ثلاثون الألوف شـــواردا	وعشــرون ألفا منهم قد تجرحـــوا

فمنـــهم قضي نحبا ومنهم بها طغي ومنهم أنـــاس في المقابر

روحـــوا

وبطلـــوسهم ذاك النهـــار قتلته وقد كـــان مقدام الجيوش مـــرجح

فبادرتـــــه في الحال حتى تركته صريعا علـــــيه الغـــانيات تنوح

وعـــاجلته في الرأس مني بضربة فأضحي بها شطرين ملقي ومطرح

وعـــــــاد بسيف ابن الوليد مجندلا تمر به كل الـــــحوادث تفـــلح

ولمـــا فني بطلوسهم صار جمعهم كما شبه أغنام وغـــــاب المسرح

وقـــــد كان في بحر الهياج مغلغلا تولي سرايا قومنا منه مـــــــرح

فلله ما أعـــــداه قد كان فارســـــا يفوق علي جيش عظيم ويرجـــح

وقـــــد فرحت أكبادنا وتـــرنمت لعمرك والأكباد بالنصر تفـــرح

أقمنـــــــا بأرض البهنسا بعد فتحها ثلاثين يوما للـــمساجد تصلـــح

وصرت إلي أرض الصعيد مـعاجلا بألفين من خيـــل الصحابة ترمح

مـــن البهنسا لأسوان جمعا فتحتها بعشر شهور بعـــــدها ليس تلمح

وعندي الثلاثـون الذي شاع ذكرها وكل فتي يا صـــاح بالألف يرجح

ورحنا فتحنا الهند والســـــند كله وأسيافنا في الـــــغمد لله تسبح

وفي كـــل أرض عسكر قد تركته يقيمون دين الحق والـــحق يوضح

وهذا كــــلام ابن الوليد الذي جري فكن سامعا معني الذي لك أشـــرح

فما مثـــــله في معمع الحرب سيد ولا مثله في جوهر النـــظم أفصح

ومن بعد ذا صلوا علي أشرف الوري نبي له كـــل البريـــــة تجـــنح

عـــليك ســـلام الله ما لاح بارق وما غـــرد القمري إذا الصبح يطفح

وأصحـــــابه والآل والعـــترة التي أقامـــوا لدين الله والشرك زحزحوا

(قال الراوي) وصار المسلمون يصعدون إلي البيت ويأخذون الرجال من بين حـــريمهم مـــن الروم ويقتلون حتى كلت سواعدهم من الذبح وجري الدم في الأزقة وصـــارت القتلي في الشوارع والأسواق مطروحين وخرجت إليهم النصاري والقبط وهم يبكون ويقولون: نحن أهل ذمتكم ونحن ذمتكم ونحن عوام وتجار وسوقة وكلنا

مغلوبـــون علي أمرنا وقتل خيارنا بأسيافكم وبقية الأمراء ويقولون هؤلاء قد صاروا رعيتـــنا وليس لهم بطش فتركوهم وقالوا بشرط أن تدلونا علي من أخفي في المغاير والمخابي، ومن فر من الباب الشرقي وغرق في الماء فدلوهم علي الجميع ولم يزالوا يقـــتلون ذلـــك اليوم كله، وفي اليوم الثاني استدعوا بنجارين يعملون عربات لحمل القتلـــى من المسلمين وأخذوا دواب أهل السواد من البقر تسحب العربات والفلاحون عملـــوا علـــيه وصارا يضعون كل ثمانية وستة وعشرة في حفيرة ويردمون عليهم الـــرمل حتـــى صاروا تلالا وشهروا قبورهم ووضعوهم بدروعهم وثيابهم ودمائهم رضـــي الله عـــنهم وأخـــذوا ألواح رخام وكتبوا عليها أسماءهم وأنزلوها في مدافن قـــبورهم ورجعوا إلي قتلي أهل البلد فواراهم أهلهم في قبورهم، وكان جملة من قتل من المسلمين في ذلك اليوم نحو أربعمائة وأزيد، الأعيان منهم صاغر بن فرقد وعبد الله بن سعيد وعبد الله بن حرملة وعبد الله بن النعمان وعبد الرزاق الأنصاري وعبد الـــرحيم اللخمـــي وأبـــو حذيفة اليماني وأبو سلمة الثقفي وأبو زياد اليربوعي وأبو ســـليمان الدارانـــي وابـــن أبي دجانة الأنصاري وأبو العلاء الحضرمي وأبو كلثوم الخزاعي وأبو مسعود الثقفي وهاشم بن نوفل القرشي وعمارة بن عبد الدار الزهري ومالـــك بـــن الحـــرث وأبو سراقة الجهني والبقية من أخلاط الناس وقتل عند سوق الـــتمارين نحو عشرين ودفنوا هناك وعند سوق الصابون جماعة كثيرة وقريبا من العطارين في جانب القبور نحو أربعين وقريبا من البحر اليوسفي جماعة عند السور رضي الله عنهم.

(قـــال الراوي) ولما وأري المسلمون شهداءهم صعدوا إلي قصر البطليموس والـــي قـــصور البطارقة ودورهم و مقاصيرهم فوجدوا فيها من آنية الذهب والفضة مـــالا يوصـــف، ومـــن المتاع والحلي والحلل واللآلئ و النمارق والجواهر والبسط والوســـائد واقتـــتلت الـــروم علي بغلة محملة عند باب السر فغلبهم المسلمون عليها وأخـــذوها فإذا عليها صندوقان فيهما أحجار معادن، فاشتري رجل من المسلمين من بـــيت المـــال حجرا بستة آلاف دينار فباعه علي غشوميته بمائة ألف دينار وأخذوا بـــساط البطلـــيموس، وكـــان مثل بساط كسري سداه حرير وذهب مرصع بالمعادن

فأرسلوه مع الخمس إلي المدينة، فجعل لعلي بن أبي طالب فيما حصل له من البساط عشرون ألف دينار وغنمت المسلمون غنائم كثيرة من أواني الذهب والفضة وغير ذلك.

(قـــال الراوي) حدثنا عون بن عبيدة عن عبد الحميد بن أبي أمية. قال هدم المسلمون القصر والكنيسة وتلك الدور وفتحوا خزائن البطليموس واستخرجوا جميع مـــا فيها من الذهب والفضة وغير ذلك ولم يتركوا فيها شيئا أبدا، وقسم خالد الغنيمة بين المسلمين فكان للفارس عشرة آلاف مثقال من الذهب وألف أوقية من فضة، ومن الثـــياب والملـــبوس وغير ذلك ما لا يوصف، ولما دخلوا الكنيسة ورأوا تصاويرها وقناديلها الذهب والفضة والستور الحرير المنقوشة والأعمدة وغير ذلك تعجبوا وقرأ خالد **﴿ما اتخذ الله من ولد﴾**[1] الآية، وقال لا اله إلا الله محمد رسول الله، فصاح المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة علي البشير النذير، وقرأ عياض الأشعري **﴿كم تـــركوا مـــن جنات عيون﴾** وجعلوا بجانبها مسجدا علي أعمدة من الرخام مسقوف علـــيها بتلك الأخشاب وهو الجامع الأول قبل بناء حسن بن صالح هذا الجامع الآن وبقية الأخشاب والحجارة منها مساجد وربطا.

(قـــال الـــراوي) حدثنا عبد الحميد عن قيس بن مهران عن أبي جعدة. قال بمدينة البهنسا أربعون رباطا، ومن المساجد ما لا يعد وأخربت الصحابة تلك المعالم وبنوا دورا لأنفسهم واختطوا بها أماكن وشوارع، وأقام خالد ومن معه بمدينة البهنسا يصلحون المساجد والربط ويخرجون المعالم شهرا كاملا، ثم أخرج الخمس وأرسله لعمرو بن العاص ومن معه من المسلمين وهو نازل بمصر علي قدر سهامهم، وقال لـــه أرسل الخمس مع أبي نعيم الأنصاري والفضل بن فضالة وأبي دجانة إلي عمر بـــن الخطاب وهو بالمدينة، فلما ورد الكتاب علي عمرو بن العاص فرح بذلك فرحا شديدا.

---

(١) سورة النساء : الآية : ١٧١.

ثم كتب عمرو لعمر كتابا مع أبي نعيم صحبة كتاب خالد وسير معه ثلاثين صحابيا حتى دخل المدينة ودخل علي عمر بن الخطاب فوجد عنده جماعة وقد أخرج لهم قصعا ومناسف من ثريد، فلما رآنا عانقنا وتهلل وجهه فرحا وجلسنا كلنا نأكل وهو قائم علي رؤوسنا متكئ علي عصا رسول الله ﷺ فلما فرغنا من الأكل ناولته الكتابين، فقرأهما وفرح فرحا شديدا ونادي في الناس الصلاة جامعة فخطب وحمد الله وأثني عليه وصلي علي رسول الله ﷺ وقرأ عليهم الكتابين واستدعي بالصحابة وقسم عليهم الغنيمة ولم يترك لأهله درهما ولا دينارا ولا ثوبا رضي الله عنه وأخذني ومضي إلي بيته بين أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأدخلني إليه فإذا فيه فراش من أدم حشوه ليف ووسائد من صوف وقطيفة واحدة فجلست. فقال لأم كلثوم هل عندك شيء من التمر؟ قالت لا إلا اللبن الحامض.

قال: ذلك لي وأن عندنا ضيفا فحضرت بعكة من سمن وقليل من عسل وفطير مع جارية فأكلت قليلا من المذكور وأخرجت الباقي لأصحابي وشرعت أحدثه عن البطليموس وهو تارة يبكي وتارة يضحك من فعله ويبكي علي من قتل من المسلمين والأمراء وخرجنا إلي مسجد رسول الله ﷺ بعد ذلك وجاءت الناس يهرعون ويسألون عن أهاليهم منا فأخبرنا عمر من مات ومن قتل فضج الناس وأهل المدينة بالبكاء وعلت الأصوات علي من قتل، وجاء الناس لعلي ولعقيل ولبني هاشم يعزونهم فيمن قتل وأقمنا بالمدينة سبعة أيام ورجعنا إلي مصر بكتاب عمر إلي خالد فأمر بالمسير إلي الصعيد.

(قال الراوي) هذا ما جري لهؤلاء. وأما خالد رضي الله عنه فإنه بعد شهر ترك أناسا من الصحابة بأرض البهنسا من جميع القبائل وخرج بألفي فارس إلي أرض الصعيد، وكانت القبائل من بني هاشم وبني المطلب وبني مخزوم وبني زهرة وبني نزار وبني جهينة وبني مزينة وبني غفار والأوس والخزرج ومذحج وفهر وطيء وخزاعة، وكان الأمير عليهم مسلم بن عقيل وأحاطوا بالمساكن، وجعلوا بالمدينة أسواقا وشوارع وسكن أكثر الصحابة في جانب البحر اليوسفي وخلوا من الأخر إلي الجانب الغربي شارعا واحدا لأجل أن تسبح دوابهم في البحر، وأقام مسلم

بن عقيل والي عليها إلي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأقام محمد بن جعفر إلي خلافة علي رضي الله عنه وتولي عليها بعده علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عــنه إلي خلافة معاوية، وكان عبد العزيز بن مروان الأموي واليا وتولي بعده طاهر بن عبد الله وكانت قريش والأشراف بالجهة الغربية ويقال لها حارة الأشراف، وكان لكل قبيلة حارة.

قــال أبو المنهال لما فتحت مدينة البهنسا كانت أهله بالجند فاجتمعت السوقة والمتسببون من أهل البلد وكانوا أربعين ألفا.

(قال الواقدي) حدثنا حامد بن المزيد عن أبي صالح عن ابن نوفل المرادي. قال كانت بمدينة البهنسا أربعمائة يقال حين فتحها يبيعون البقل وغيره وكانت مدينة عظـيمة، فلمـا وقـع بين بني أمية وبني هاشم ما وقع أخرجوا منها جماعة واختل أكثـرها. قال وتسلسل إليها جماعة من العربان حتى جاء الحسن واخوته في خلافه بني العباس فعمر جامعها وأكثر من الزوايا والربط وأقام بها حتى مات.

قــال: ورجعنا إلي سياق الحديث وخرج خالد بمن معه إلي الصعيد ولم يزل يفـتح مديـنة بعد مدينة إلي اخر الصعيد إلي عدن وسواكن، وليس مقصدنا في هذا الكـتاب إلا فتوح البهنسا خاصة التي عليها مدار فضائل السادة الشهداء لآن بتربتها خمـسة آلاف صحابي وحضر فتح البهنسا نحو سبعين بدريا من أصحاب رسول الله ﷺ وفــي زيارتهــا تعظم الأجور، وقد زارها جماعة من العراق مثل بشر الحافي وســري الــسقطي ومالك بن دينار وسحنون، وزارها من أقصي المغرب أبو مدين وشــعيب وأبــو الحجاج، وأبو عبد الله وزارها الفضل بن عياض، وروي أن إقليم البهنــسا أكثر بركة من جميع الأرض كلها، وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يقــول: إن رســول الله ﷺ قال "ليس بعد مكة والمدينة والأرض المقدسة والطور أرض مباركة إلا أرض مصر والبركة هي في الجانب الغربي".

(قــال) ولعلها البهنسا، وكان علي بن الحسن يقول إنه ليس بأرض مصر بالــوجه القبلــي أرض مــباركة ولا اكثر بركة من أرض البهنسا، وكان أبو علي النواوي إذا أتي أرض البهنسا وأتي الجبانة ينزع ثيابه ويتمرغ في الرمل ويقول: يا

لـك مـن بقعة طالما ثار غبارك في سبيل الله، وكان أبو علي الدقاق إذا مر بجبانة البهنسا يقول يا لك من بقعة ضمت أعضاء رجال وأي رجال طالما عرقت وجوههم فـي سبيل الله وقتلوا في سبيل الله ومرضاته. وقيل للحسن بن صالح لم اخترت هذه البلدة علي غيرها؟

قال: كيف لا آوي إلي بلد أوي إليها روح الله وكلمته وينزل علي جبانتها كل يوم ألف رحمة ولما ولي عبد الله بن طاهر مصر تجهز وأتي إلي البهنسا، فلما قرب من الجبانة ترجل عن جواده وترجل من معه، وكان الوالي عليها عبد الله بن الحسين الجعفـري فخـرج ماشيا وسلم عليه، ولما وصل الجبانة قال السلام عليكم يا أحياء الدارين وخير الفريقين، ثم التفت إلي أصحابه وقال: إن هذه الجبانة ينزل عليها كل يـوم مائـة رحمة وأنها تزف بأهلها إلي الجنة، ومن زارها تتساقط عنه ذنوبه كما يتساقط الورق من علي الشجر في يوم ريح عاصف، فكان عبد الله بعد ذلك كل يوم يخرج حافيا فيزورها حتى مات ودفن رحمه الله.

(قال الراوي) حدثني رجل من أرض البهنسا من أهل الخير والصلاح يسمي عبد الرحمن بن ظهير.

قـال: كـان لي جار مسرف علي نفسه ومات ودفن قريبا من الشهداء الذين بالجانب الغربي، فبينما أنا نائم تلك الليلة فرأيته وإذا عليه ثياب من السندس الأخضر وعليه تاج من الجوهر وهو في قبة من نور وحوله جماعة لم أر أحسن منهم وجها ولا ثوبا متقلدين بسيوف وهو بينهم فسلمت عليهم وقلت له يا هذا لقد سرني ما رأيت من حالك. فقال يا هذا لقد نزلت بجوار قوم يحمون النزيل في الدنيا من العار، وكيف لا يحمـونه في الآخرة من النار وقد استوهبوني من العزيز غافر الذنوب والأوزار وأسكنني جنات تجري من تحتها الأنهار.

قـال ذو النون المصري رضي الله عنه: كنت في كل سنة أتي إلي البهنسا وازور الجـبانة لما رأيت في ذلك من الأجر والثواب فحصل لي في سنة من السنين عـارض منعنـي مـن زيارتها، فبينما أنا نائم ليلة من الليالي إذ رأيت رجالا لم أر أحـسن مـنهم وجـوها ولا أنقـي ثيابا علي خيولهم شهب وبأيديهم رايات خضر

ووجوههم تتلألأ أنوار فسلموا علي وقالوا قد أوحشتنا يا ذا النون في هذه السنة وان لـــم تـــزرنا زرناك. فقلت لهم من أنتم؟ فقالوا نحن الشهداء الأخيار أصحاب محمد المخـــتار بالبهنسا كنا بأرض الروم لنصرة المسلمين علي أعداء الله الكافرين فمررنا بك لنسلم عليك وننظر ما سبب انقطاعك عنا.

قـــال: فـــي أي أرض أنتم؟ قالوا نحن سكان جبانة البهنسا ولك علينا حقوق الـــزيارة لأنك من أهل الإشارة. فقال لهم يا سادتي أني لا أعود وحبل الوصال بيننا ممـــدود، ومـــا كنت أعلم أنكم تعلمون من زار، وما كنت أظن في نفسي أنني بهذا المقـــدار. قالـــوا يا ذا النون أما تعلم – أن الشهداء **﴿أحياء عن ربهم يرزقون﴾**(١) وبهـــذا نطـــق الكتاب المكنون ثم تركوني ومضوا فاستيقظت وفي قلبي لهيب النار، فطوبى لمن زار هؤلاء السادات الأخيار.

قـــال المؤلـــف: ولقد وضعت في هذا الكتاب كل نادرة عجيبة غريبة، وهو كتاب كامل المعاني والبيان عظيم القدر والشان لا يفهمه إلا ذوو البصائر والألباب، ولا يعقلـــه إلا أهـــل الخطـــاب ولا يقرؤه إلا أهل الذوق والمعرفة، فهو كالزهر في الرياض لمن اقتطفه، نفع به مالكه وكاتبه وقارئه ومستمعه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي سيد المرسلين.

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٦٩.



تعريف بمحقق الكتاب

- هو اللواء بحري / يوسف محمود يوسف علي
- من مواليد محافظة المنيا
- من قادة حرب العاشر من رمضان المجيدة
- تخرج من الكلية البحرية عام ١٩٦٠م وتدرج في المناصب حتى تولي قيادة وحدات الصاعقة البحرية الحاصلة علي وسام نجمة سيناء العسكرية في حرب العاشر من رمضان .

للاستعلام ،،،
موبايل: ٠١٠١٠٧٠٥٥٢



قال ذو النون المصري رضي الله عنه: كنت في كل سنة أتي إلي البهنسا وازور الجبانة لما رأيت في ذلك من الأجر والثواب فحصل لي في سنة من السنين عارض منعني من زيارتها. فبينما أنا نائم ليلة من الليالي إذ رأيت رجالا لم أرى أحسن منهم وجوها ولا أنقي ثيابا علي خيولهم شهب وبأيديهم رايات خضر ووجوههم تتلألأ أنوار فسلموا علي وقالوا قد أوحشتنا يا ذا النون في هذه السنة وان لم تزرنا زرناك. فقلت لهم من أنتم؟ فقالوا نحن الشهداء الأخيار أصحاب محمد المختار بالبهنسا كنا بأرض الروم لنصرة المسلمين علي أعداء الله الكافرين فمررنا بك لنسلم عليك وتنظر ما سبب انقطاعك عنا.

قال : في أي أرض أنتم ؟ قالوا نحن سكان جبانة البهنسا ولك علينا حقوق الزيارة لأنك من أهل الإشارة. فقال لهم يا سادتي أني لا أعود وحبل الوصال بيننا ممدود. وما كنت أعلم أنكم تعلمون من زار. وما كنت أظن في نفسي أنني بهذا المقدار. قالوا يا ذا النون أما تعلم - أن الشهداء ﴿ **أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ (آل عمران الآية ١٦٩) وبهذا نطق الكتاب المكنون ثم تركوني ومضوا فاستيقظت وفي قلبي لهيب النار.

فطوبى لمن زار هؤلاء السادات الأخيار.

قال المؤلف : ولقد وضعت في هذا الكتاب كل نادرة عجيبة غريبة. وهو كتاب كامل المعاني والبيان عظيم القدر والشأن لا يفهمه إلا ذو البصائر والألباب. ولا يعقله إلا أهل الخطاب ولا يقرؤه إلا أهل الذوق والمعرفة. فهو كالزهر في الرياض لمن اقتطفه. نفع به مالكه و[illegible] وقارئه ومستمعه. والحمد لله رب العالمين. والصلاة وال[illegible] علي سيد المرسلين .



